الصابئة

قديما وحديثا

بقلم

السيد عبد الرزاق الحسني

مصدراً بمقدمة نفيسة من قلم حضرة صاحب السعادة العلامة

أحمد زكي باشا

المطبعة الرحمانية بمصر

الصابئة

قديماً وحديثاً

بقلم

السيد عبد الرزاق الحسني

مصدراً بمقدمة نفيسة من قلم حضرة صاحب السعادة العلامة

أحمد زكى باشا

المطبعة الرحمانية بمصر

طبع بنفقه

مكتبة الخانجي

لاصحابها أولاد محمد أمين الخانجي

بشارع عبد العزيز بمصر

صندوق البوستة بمصر ٢٩٦٥

الطبعة الأولى

باذن حضرة المؤلف وتصحيحه

سنة ١٣٥٠ ه سنة ١٩٣١ م

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

فى العراق جماعة من الناس يتراوح عدد نفوسهم بين الخمسة والستة آلاف نسمة يعيشون على ضفاف الأنهر ، ويتفرّدون بعادات وتقاليد لم تألفها بقية الأمم ، ويسمون أنفسهم (الصابئة) وقد تكون هذه الجماعة من الصابئة القديمة وقد لا تكون إلا أن الشيء المحقق عندى هو ان قسما كبيراً من عبادة الصابئة الأقدمين وطقوسهم الدينية بارزة بين معتقدات هذا الفريق من الناس .

والرسالة التى بين يديك أيها القارئ الكريم قد توقفك على كثير من عادات وتقاليد وطقوس وفرق الصابئة قديماً وحديثاً . فان كنت قد أفدت التاريخ بتدوينها ونشرها ، فذلك حسبي ومن الله التوفيق

الحسنى

بغداد سلخ ربيع الأول سنة ١٣٥٠

مقدّمة

بقلم حضرة صاحب السعادة البحاثة الكبير والأستاذ الجليل

شيخ العروبة العلامة

أحمد زكى باشا

البراعة فى نظرى نوعان : براعة الابتكار ، و براعة الاتقان .

١ — فبراعة الابتكار،أن يتناول الانسان غرضاً من أغراض العمران، أو عرضاً من أعراض الحياة ، فيتولاه بالتفكير الطويل و يعالجه بتكرار النظر العميق ، حتى إذا توافرت لديه الوسائل وتهيأت أمامه الأسباب ، أبرز للناس خلاصة بحثه الناضج ، فاذا هى حلية للابصار ، وجوهرة للعقول ، ومتعة للناس.

هذه البراعة مقصورة على أفراد معدودين ، يبعثهم الله من حين إلى حين ، و فى جيل دون جيل . وهم قليل بل أقل من القليل . ولكن ثمرات أعمالهم تتنقل بالانسانية كلها من حال إلى أسمى منها ، وترتقى بالحضارة إلى ماهو أرفع وأرفه . وهذه نعمة من نعم الله ، فيها الخير العام وفيها البركة الشاملة .

٢ — أما براعة الاتقان ، فانها مختلفة المظاهر ، متعددة الأشكال . وسأقف فى هذه الكلمة أمام ناحية واحدة من نواحيها الجمة .

تلك هى ناحية التحقيق العلمى الصحيح .

فالبراعة كل البراعة أن يعالج الكاتب موضوعاً مطروقاً أو بحثاً معهوداً ، أو أن يلتمس أثراً مشهوداً أو أمراً معروفاً ، فيدرسه درساً صحيحاً ، و يبحثه بحثاً دقيقاً . ثم يفيض عليه شيئاً من سحر البيان ، ويضيف اليه قبساً من نور العرفان ، مع تزيينه بطريف التمحيص ومبتكر التحقيق .

البراعة كل البراعة ، أن يجيد بعد ذلك تدبيج أطرافه وتوشية حواشيه ، بما ينفخه من روح الحياة فيه ، مما نزل عليه من الالهام بطريق الرحلة إلى المصادر الأوّلة ، أو توصل إليه عن طريق المكابدة فى الاستقاء من المناهل الأصلية

هذه هى البراعة التى امتاز بها أعلام العروبة على عهد ازدهارها : فى مكة والمدينة ، فى صنعاء وزبيد ، فى البصرة والكوفة ، فى بغداد والموصل ، فى دمشق وحلب ، فى القدس وطبرية ، فى الفسطاط والقاهرة ، فى برقة وطرابلس ، فى المهدية والقيروان ، فى وهران وتلمسان ، فى فاس ومراكش ، فى شنقيط وتُنْبُكْتُ ،[1] ثم فى قرطبة وغرناطة ، وغيرهما من أمصار الفردوس الاسلامى المفقود ، وأخوه الذى هو على شفا جرف هار .

هذه هى البراعة التي آمحى أثرها (إلاّ نزراً يسيراً تحت الاطلال) فقد درست تلك بالاعلام .

هذه هى البراعة التى خبا نورها (إلا جمراً ضئيلا بين الرماد) فقد انطفأ ذلك المصباح .

ننشدها هنا وهنا ، فلا نجد لها غير ثمالة زهيدة عندنا ، مزهود فيها عند غيرنا . أما نفحاتها الحقة ، واما مظاهرها النافعة ، فقد ودعت بلادنا من زمان بعيد ، ثم طاب لها القرار فى ديار الفرنج ، لأنهم أكرموا مثواها ، ولا يزالون يبالغون فى الحفاوة بها .

---

(١) عاصمة الصحراء فى أفريقيا . وهى التى مسخ الجهلة المتفرنجون اسمها متابعة للافرنج فى قولهم Tombouctou فقالوا «تمبكتو» والصواب ماقلت « تنبكت » (بضم فسكون فضمتان بينهما سكون) . فافهم واحفظ . لأن الافرنج رسموا اللفظ حسب النطق به ، ولكن المتفرنجين مسخوه بالأخذ عنهم ، دون الرجوع الى أهل العلم أو أهل الدار .

حقاً، إنهم أخذوا عن أجدادنا فى الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق والجزيرة المقدسة وما إلى وراء ذلك حتى مطلع الشمس . بيد أنهم واصلوا البحث والدرس حتى وصلوا إلى تسخير العناصر لخدمتهم وإلى ابتكار الصنائع واختراع البدائع التى يصح وصفها بأنها مما « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

هم يتوافدون من كل فج عميق على أقطار العروبة من أقصاها إلى أقصاها، فيبحثون عما جهلنا من آثار أجدادنا الأولين .

هم ينقبون عن مفاخر أقوامنا فى كل فن ومطلب ، فيعيدونها إلى الحياة ، ونحن نيام نيام ، ولا أقول غير ذلك .

على أننا، نحمد الله ، قد بدأنا نأخذ عنهم ، ثم أنشأنا ننسج على منوالهم، فدخلنا طور التجربة وسيتبعه طور الانتقال ، فنكون جديرين بالأجداد .

٣ — بدأت بشائر هذه النهضة فى مصر ، فجاوبتها الشامات . ثم جاء الدور لبغداد . وهو آت بلا شك إلى الجزيرة المقدسة .

وطالما تغنيتُ بما حدث فى مصر والشام ، وطالما تمنيتُ أن أترنَّم بغيرهما من بقاع العروبة وإننى لسعيد بالتحدّث فى هذه الكلمة عن العراق .

٤ — ففى بغداد نهضة مباركة ، وفى كل أنحاء العراق شعب طموح وثاب . وها هى آثار العمران تعود قليلا قليلا إلى مهد العمران . وهاهى شبيبة الفرات تستقى من « النيل » ومن « السين » و « التاميز » ثم تعود إلى الرافدين لنشر العلم ولأحياء الصناعة فى « مابين النهرين » .

والذى تناهى لى عن ثقات الأصدقاء الصادقين، أن الحركة الاقتصادية والصناعية فى ديار العباسيين ، بين الوطنيين ، وفى دائرة الوطنيين ، ولمصلحة الوطنيين، هى أوسع نطاقا وأغزر مادة وأكثر رواجا مما هو حاصل فى وادي

النيل. وهذا شيء محمودنقابله بالاغتباط مع الارتياح .

ولقد رأيت سادتهم وقادتهم فى الشتاء الماضى بأرض مصر، وهم (مثل طلبتهم هنا) متشحون بملابس كلها من نسيج بلادهم . وهم بها فخورون .

أما الصحافة، وهى عنوان النهضة، ومرآة الامة، ورسول الوطنية ، فانني أرى فيها كل يوم بشارة جديدة تبعث الأمل وتقيمه على دعائم راسخة

وأما الجوّ العلمى ، فقد كان إلى عهد قريب فى خمول وخمود . ولـكن السحائب السود ، بدأت تتبدّد عنه ، فانبثق مجال ضئيل للنور . وعن قريب يتم له الاشراق على كل آفاق العراق . فيعود لبغداد عصر بني العباس فى ثوب عصري قشيب.

٥ — من آثار تلك البراعة التى تحدثت عنها فى العراقين، ومن مظاهر هذا النور الذى ترمّقته فوق الرافدين ، هذا الـكتاب الصغير. هذا الـكتاب الذى توفر مؤلفه البارع على درس الصابئة أو القوم الألى يسمون أنفسهم بالصابئة فى بطائح البصرة وفى سهول الموصل . وقد أجاد فيه واستوفى شروط البراعة التى أشرت اليها فى صدر هذه الـكلمة.

وأنت ، إذا قرأته مثلى ، رأيت فيه دليل البراعة التى حدثتك عنها .

وأنا أتنبأ لصاحبه بأن كتابه هذا سيتناوله المستشرقون بالترجمة إلى الألمانية وإلى كثير من اللغات الأخرى ، وأنه سيكون مصدراً من مصادر ابحاثهم، ومرجعا يرجعون اليه، ومنهلا يستقون منه. وحسبه ذلك فخاراً

ولمثل هذا فليعمل العاملون؟

احمد زكى باشا

عن دار العروبة { ربيع الثانى سنة ١٣٥٠
أغسطس سنة ١٩٣١

الصابئة قديما وحديثا

توطئة

نظرة واحدة الى تطورات الفكر البشرى فى مختلف عصوره، تدل الباحث على الاتجاهات الفكرية الغريبة ،والى تعدد النظرات فى فهم هذا الكون و تفهّمه .

ومهما حاول الانسان أن يبتعد فى تفكيره عن المعتقد وأن يجعل النظر خالصاً من شائبة الايمان ، فانه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . فالبحث فى المعتقدات انما هو بحث فى طوابع التفكير ومناهج النظر البشري . الا ان فائدة هذا البحث لا تقتصر على دراسة تاريخ المعتقدات والمذاهب فحسب ، انما ترينا كيف شرع الانسان الأول يفكر فى نفسه وفى خالقه وفى الرابطة بينه وبين هذه القوة المدبرة وتوقفنا من جهة ثانية على قيمة ما يظهر من النظريات فى عصرنا الحاضر وما نراه مستحدثاً وطريفاً فى آراء البشر ومعتقداته .

وضرورى أن يعود الانسان الى تاريخ التفكير والمعتقد ليطلع من ورائه على غرائز البشر العامة وعلى ميوله وتأثيره بالظروف والأحوال . فكل وجودات الانسان فكرية كانت

أو مادية مرتبطة تمام الارتباط ومستند بعضها الى بعض . وقد تكون هذه التفكيرات والمعتقدات عند التحليل والتمحيص ذات أصل واحد تشعبت منه وطوّرت الانسان وتطورت معه ولكنها أصبحت بمرور الأزمان مختلفة تمام الاختلاف ومتباينة تباين سلائل الانسان الحاضر .

وكل ما يأتى به الباحث فى مواضيع غامضة كهذه ، هو أن يدل المتتبع على أصلها الذى نشأت منه ، ويلوّح الى العوامل والمؤثرات التى عملت على تعريفه ، والصابئة من بين الأديان القديمة التى تستحق أن توضع موضع البحث الواسع فى اللغة العربية ، وتستخلص زبدة الفكر فيها من كتب التاريخ والأديان القديمة ، ويستعان على ذلك بما فى كتب المؤلفين العصريين الأجانب من تطورات واجتهادات عسى أن تكوّن مجملا طريفا فى تاريخ الصابئة يستعين به قراء العربية فى فهم دقائق هذا المذهب الغامض .

وقد يضطرنا البحث في دين الصابئة الى التعرّض والنظر فى فكرة التوحيد ومنشئها والطرق التى توصل بها البشر الى الاعتقاد بقوة واحدة تدبر هذا الكون وتهيمن عليه .

نظر البشر الى هذا الكون فأبهره ما يحيط به من مظاهر الطبيعة وعجائب الكون . ورأى نفسه موجوداً صغيراً عاجزاً عن رد الطوارئ الكونية ومجابهة العاديات فأكبر العاصفة وارتعدت

فرائصه للصاعقة، ورأى فى كل تلك المظاهر قوةً مدركة وحياة خاصة قاسها بما له من وجود وادراك وحياة ورآها مثالا للقوة التى تستحق الانقياد والخضوع ، ومن هنا نشأت فكرة العبادة لمظاهر الكون واستمر البشر يؤلّه كل ما يخاف منه وما يجهل كنهه ، أو يرى فيه شيئا غريبا حتى تطورت فكرة الدين بتطور البشر وأصبحت المظاهر الطبيعية تنضوى قواها وتستتر صفاتها فى قوى محصورة ثم فى قوة واحدة .

فبعد أن كان الريح العاصف والصاعقة المخيفة والشمس المبهرة والنار المتأججة وما سواها من مظاهر الطبيعة، آلهة تعبد وأربابا تطلب منها المساعدة والمعونة ، أصبحت تلك القوى التى استترت فيها متمثلة فى عدد محصور من الكواكب السيارة وفى قوة تمثلها تلك الكواكب. واستمرت هذه الفكرة وتطورت فأصبح عدد الكواكب يتضاءل وأصبحت تلك الآلهة المتعددة يختفى بعضها ضمن بعض حتى لم يبق إلا إله واحد ، وأصبح الخلاف فى صفاته ووجهات النظر اليه بعد ان كان نزاعا وخلافا فى شركائه وأقرانه .

ولكن بالرغم من هذه التطورات التى تطورها البشر فى عقيدته، فان جذور تلك الاعتقادات لا تزال باقية ولا يزال قسم من البشر يحتفظ بأصول العقائد الأولى وبصفات التفكير القديم كما يوجد الآن قسم من البشر يحتفظ بعادات وأشكال البشر القديم .

فالصابئة وان أدخلت على معتقداتها بعض التعاليم الحديثة فانها من تلك المعتقدات التى كانت فى الدور الأول للتفكير البشرى لأن تأليه الكواكب وعبادة النجوم والنظر اليها كمظاهر ذات أثر وذات إدراك، من المعتقدات التى لم تنشأ الا فى العصور الغابرة الا ان فى بعض الأقوام خاصية الاحتفاظ بالتقاليد والعادات أو بالآراء والمعتقدات ، وهذا ما نراه فى أصول ديانة الصابئة وفى تعاليمهم .

أدوار الديانة الصابئية

١ — الصابئة فى الدور الاول

لاشك فى أن الديانة التى سادت العالم فى الأعصر الأولى كانت هى (الديانة الطبيعية) أى عبادة مظاهر الطبيعة . وكان للاجرام السماوية بين تلك المظاهر المقام الأول والقدح المعلى ، فكان البشر الأول رغم دخوله فى دور الحضارة وتأسيسه أصول المدنية ، لايزال فى ديانته يمثل عصر ما قبل التاريخ . فلم تخل حضارة البابليين والمصريين القدماء والفرس وحتى اليونان — على تأخرهم — من تأليه مظاهر الطبيعة وتقديس الاجرام العلوية .

وإذا اعتبرنا أن ديانة الصابئة هى عبادة الكواكب والنجوم فلا شك انها أقدم ديانة عرفها البشر فى عصر التاريخ . أما أصول

هذه الديانة فهي الاعتقاد بتعدّد القوى المدبرة لهذا الكون وبوجود قوة أعلى تهيمن على هذه القوى وتديرها . أما هذه الهياكل التي يقيمونها في الأرض وتلك المظاهر والطقوس التي يأتون بها في فروض عباداتهم، فكلّها وسائط تقرّبهم من تلك الأجرام التي حلت فيها القوة . فشكل الكوكب إذا نقش على خاتم، وهندسة البيت إذا بنى على شكل خاص ،والحضور إلى الهيكل أو البيعة في أوقاتٍ معينة ، والتوجه لدى تلاوة الأسماء وتمجيد الآلهة إلى جهة خاصة ، كل هذه مما يقرّب الانسان من مصدر القوة الأعلى .

هذه هي أصول ديانة الصابئة في دورها الأول وقد بقي بعد تطوّرها طيلة هذه الأعصر شيء من تلك الأصول يوجد في عبادة الصابئة الحاليين من تعظيمهم للكواكب والنجوم ولا سيما الكواكب السيارة السبع . أمَا النجم القطبي فله مقام ممتاز عندهم فهو القبلة التي يتجه اليها في كل فرض وطقس يقوم به المتديّن . وكل الشعائر إذا لم يتوجه بها إلى هذا الكوكب فليست بمقبولة . فالهيكل إذا بنى، وجب جعل بابه مستقبلاً له بحيث يكون الداخل إليه مستقبلا هذا النجم وبحيث تكون الشعائر التي تؤدى فيه متجه بها إلى جهته تبركا بطلعته وتيمناً بما له من خواصٍ .

وكأن هذه الميزة التي امتاز بها هذا الكوكب انما جاءته من جهة ثباته و بقائه في موضعه دون أن يغيب عن كبد السماء في كل

ليالى الفصول . ومعلوم ما للمظهر الطبيعى من الأثر — ولا سيما على البشر الأول — فى تكوين العقيدة . ولكون الكواكب الأخرى تغيب عن كبد السماء فى بعض الفصول وتظهر فى الفصول الأخرى فقد جاءت بعد النجم الثابت فى الدرجة . أما الشمس والقمر فانهما وان كانا مستمرين فى الظهور ، إلا أن مايطرأ عليهما من الانتقال من برج إلى برج ومن النقصان والكمال ومن الخسوف والكسوف ، كان يفقدهما صفة الثبات التى امتاز بها الكوكب القطبى .

٢ — الصابئة فى الدور الثانى

يكاد يكون تاريخ ديانة الصابئة تاريخاً عاماً للأديان الأخرى فان السنن التى تمشّت عليها هذه الديانة والتطورات التى تطوّرت بها توجد بارزة فى سنن وتطورات سائر الأديان .

وغريب أن يذهب البعض إلى القول بأن الصابئة انتقلت من دورها الأول إلى دورها الثانى مباشرة ومن دون عملية تطور . ولا يستطيع الباحث المنقب مهما ساعدته المصادر أن يقف على حلقات الانتقال من الدور الأول فى عبادة الأجرام إلى الدور الثانى فى عبادة الأصنام والرموز والأوابد وكل مايعرفه التاريخ ، إن الصابئة بعد مرور عصور طويلة ، أصبحت تبنى الهياكل

وتسميها بأسماء الكواكب وتقيم فى وسطها التماثيل وتبنى على المرتفعات العالية الأوابد والرموز .

أما الأسباب التى دعت إلى هذا الانتقال فهى مما تساعد عليه عوامل التطور ويقتضيه تقدم البشر فى الحضارة . فالفكر وسائر وجودات الانسان الأخرى تتمشى فى سويةٍ واحدة وتتطور على نسقٍ واحد .

وقد فطن (المسعودى) المؤرخ الشهير إلى هذا المعنى فذكر قائلا « أقام الصابئة على عبادة الأجرام برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبّهم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وأن كل ما يحدث فى هذا العالم فانما هو على قدر ما تجرى به الكواكب على أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهراً طويلا . فلما رأوا الكواكب تختفى بالنهار وفى بعض أوقات الليل لما يعرض فى الجو من السواتر ، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب المشهورة وكل صنف منهم صار يعظّم كوكباً منها ويقرب له نوعاً من القربان خلاف ما للآخر . على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام ، تحركت لهم الأجسام

العلوية السبعة بكل ما يريدون فبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب » اهـ .

أما الرموز فكانت عبادة ترمى إلى إظهار الأجسام العلوية بأجسام طبيعية سفلية فالنار والماء والهواء مما يرمز به إلى تلك الكواكب لأنها صادرة منها ومن هنا جاءت عبادة النار واستقلّ بها فرع من الصابئة دعى بعد ذلك (بعباد النار أو المجوسية) .

ولا يزال الصابئة الحاليون يقدسون مظاهر الطبيعة ويرون فى النار والشهب والرعد والبرق وسائر الظواهر الجوية رمزاً يعبر عن إحدى تلك الكواكب ، وقد تخيلوا لتلك الأجرام العلوية أشكالاً خاصة نحتوا على صورها الأوابد والتماثيل المقامة فى الأماكن المرتفعة فكان لكل نجم صورة ولكل كوكب تمثال خاص يمثله فى أدوار ظهوره وهكذا ظلت الأوابد والتماثيل الخالدة تعبر لنا عن تفكير البشر الأول فى خالقه وتصوره للقوة المدبرة .

٣ ـ الصابئة فى الدور الثالث

بدأ هذا الدور باستقرار ديانة الصابئة ودخولها ضمن الكتب والأسفار واعتناء الكهنة بدراستها وتدريسها فكانت وكان فيها مجال واسع للنظر والبحث وللفلسفة والتعليل شأن كل ديانة تستقر وتستمر .

والذى يظهر من تتبع التاريخ ، أن هذا الدور كان دور تعليل

وتحليل لأصول الديانة. وكان لانقطاع الرهبان إلى الدراسة والعبادة شأن فى إدخال الآراء الفلسفية على تعاليم الدين . أضف إلى ذلك أن العلم والبحث فى ظواهر الكون، كان من جملة ماتدرّسه المدرسة الأولى وما تعنى بالبحث عنه فكان لزاماً أن يتأثر الدين بالفلسفة وان تظهر التعليلات النظرية فى المعتقدات الدينية ولا سيما وأن الفلسفة فى تلك العصور لم تكن فى مبادئها علمية بحتة بل كان للدين تأثير عليها فكان مما لا بدّ منه أن تصبح الفلسفة دينية وأن يصبح الدين فلسفة .

فتعاليم الصابئة فى هذا الدور تأثرت نوعاً ما بهذا النوع من الفلسفة وكانت الابحاث فيها تدور عن حقيقة التمثيل والقوة وعن قابلية الكواكب واستعدادها وعن التأثيرات الكونية وعلاقتها بهذه الكواكب وعن خواص الأسماء والحروف وعن مبدأ العالم ومنتهاه .

كل هذه الأشياء كانت مما يبحث عنها. ولكن عللها لم تكن علمية بحتة نظراً لبداية البشر فى فهم الكون انما كانت كل التعليلات دينية تربط بخالق القوة وباشاءته . فالشكل المربع مثلا فى نظرهم اذا كتب في ساعةٍ معينة من ساعات النهار أو الليل بحروف خاصة لكوكب من الكواكب السيارة ، أصبح ذا أثر فى الخارج .

أما السبب في هذا الأثر وفي هذه القوة التي ظهرت في المربع فمستند في نظرهم الى ما منح الله ذلك الكوكب من قوة التأثير وهكذا كانت تعلل كل أصول الدين وأسراره.

ويمكننا من دراسة تاريخ بعض الأديان أن نعرف الأدوار التي ظهر فيها بعض الأنبياء فزمن الخليل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم وطرق استدلاله ومحاجته، يبين بوضوح أنه جاء في زمن الفلسفة الدينية أي الدور الثالث للديانة الصابئية.

ولم تنج هذه الديانة كغيرها من التأثير بالفلسفة اليونانية التي جاءت بعد ان نضجت الفلسفة وحاولت الاستقلال عن الدين فقد أدخل الصابئون كثيراً من الآراء الفلسفية اليونانية في تعاليمهم وقد يكون هذا التجدد في نهاية الدور الثالث الذي دعي بعد ذلك بدور الفلسفة.

٤ ــ الصابئة في الدور الرابع

كان للانقلاب الأخير الذي حدث قبيل المسيح (ع) وما جاء بعده من التطورات الدينية، أثر بيّن في سائر الديانات الأخرى، وكانت فكرة ظهور مجدّد للغاية العامة، متغلغلة في نفوس أصحاب كل دين. فقد مال الصابئة الى الاعتقاد بأن يوحنا المعمدان هو الرجل المجدد المنتظر فاعتقدوا به وعظموه ولا يزال الصابئة حتى الآن يذكرون له بعض التعاليم ويعتقدون به كنبي مجدد.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الصابئة قد انقرضت منذ ظهور المسيح (ع) وأن المعتقدين بها قد اندمجوا فى الديانة النصرانية اذ لا يزال القسم الكبير من الصابئة الحاليين يعتقدون بأصول المعتقد الأول الذى يرمى الى تقديس الكواكب وتأليه النجوم .

فرق الصابئة

أهم ما يلزم الباحث عند ما يريد أن يجزئ نقاط مبحث أو ينظر فى أقسام موضوع، هو ان يبعث نظرة اجمالية فى ذلك المبحث أو الموضوع ويكوّن للقارئ فكرةً عامة عن منشأ ذلك التجزؤ والتقسيم .

ومن الصعب جداً أن نتوصل بصورة تاريخية إلى الأزمنة التى تفرّعت فيها الأديان وتجزأت فيها المذاهب ولكن ذلك لا يمنعنا من الدخول فى موضوع الصابئة وأمثالها من الأديان القديمة الكبرى، ولا يمنعنا أيضاً من البحث عن فرقها التى تفرّعت عنها .

ولئن كانت لفظة الصابئة عامة تتناول بحسب مفهومها قسماً واحداً من المتدينين بهذا الدين ، إلا أن البحث التاريخى يدلنا على فرق متعددة ومذاهب متشعبة تندمج كلها تحت هـذا الاسم ويجمعها جامع هذا المفهوم على ما بينها من اختلافٍ فى العقيدة والفروع وعلى ما أصابها من تطورٍ فى الزمان والمكان .

وقد تطرق العلماء والمحدثون إلى تقسيم الصابئة وبيان الفرق التى نشأت منها وعرفوا كل قسم بما له من معتقد وبما يمتاز به من عبادة وما يقطنه من مكان . إلا أن القسم الأغلب من أولئك الباحثين كان معتمداً فى بحثه على غيره وكان ناقلا مجرداً غير متبحّر ولا متوغل . ولعل أحسن من توسع فى هذا البحث وبيّن الفرق الصابئية مستنداً إلى العقل والنقل هو الامام أبو الحسن على بن محمد المكنى بأبي علي بن سالم التغلبى الفقيه الأصولى الملقب سيف الدين الآمدى المتوفى عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر فى كتاب خطى له يدعى (كتاب أبكار الأفكار) ان أشهر فرق هذه الملة أربع وهى:—

الفرقة الأولى

أصحاب الروحانيات : وقد يقال ذلك بالرفع أخذاً من الروح وهو جوهر . وقد يقال بالنصب وهو حالة خاصة به . وقد زعم هؤلاء ان أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث وهو أجلّ وأعلى من أن يتوصل إلى جلاله بالعبودية له والخدمة من السفليات وذوات الأنفس المنغمسة فى عالم الرذائل والشهوات وانما يتقرب إليه بالمتوسطات بينه وبين السفليات وهى أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية (نسبة إلى الجرم) والقوى الجسمانية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية فى جوار رب العالمين . مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائماً وسرمداً . قالوا وهم آلهتنا وأربابنا

ورسائلنا إلى حاجاتنا وبهم يتقرب إلى الله تعالى . وهى المدبرة للكواكب الفلكية والمدبّرة لها على التناسب المخصوص حيث يتبعها انفعالات فى العناصر السفلية . وحركات بعضها إلى بعض وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضى إلى التركب الموجب لتنوع المركبات إلى أنواع المعادن والنباتات والحيوانات وتصريف موجودات الأعيان من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن إلى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية .

وزعموا أن الكواكب الفلكية هى هياكل هذه الروحانيات وان نسبة الروحانيات اليها فى التقدير لها والتدوير ، نسبة الأنفس الانسانية إلى أبدانها وان لكل روحانى هيكلاً يخصه ولكل هيكل فلكاً يكون فيه . وزعموا ان المعرّف لهم (غارميون وهرمس) اللذان هما أصل علم الهيئة وصناعة النجامة . وهرمس هو أول من قسّم البروج ووضع أسماءها وأسماء الكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها وبين الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر والتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والميل والتعديل . واستقل باستخراج أكثر الكواكب وأحوالها . وقيل ان غارميون هو شيت وهرمس هو ادريس (ع) .

الفرقة الثانية

أصحاب الهياكل : فانهم قالوا إذا كان لابدّ للانسان من متوسّط

فلابدّ من أن يكون ذلك المتوسط كما نشاهده و نراه حتى نتقرب إليه . والروحانيات ليست كذلك فلابدّ من متوسط بينها وبين الانسان . وأقرب ماإليها هيا كلها فهى الآلهة والأرباب المعبودة والله تعالى رب الأرباب وإليه التوسل والتقرب . فان التقرب اليها ، تقرّب إلى الروحانيات التى هى كالأرواح بالنسبة اليها . ولا جرم انهم دعوا إلى عبادة الكواكب السبعة السيارة ثم أخذوا فى تعريفها وتعريف أحوالها بالنسبة إلى طبائعها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها ونسبتها إلى الأماكن والأزمان والليالى والساعات وما دونها إلى غير ذلك . ثم تقربوا إلى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات فيما يناسبه من الأماكن والأزمان واللباس الخاص به والتختم بالخاتم المطبوع على صورته . والهياكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التى هى أرواحها ومتصرفة فيها . ومنهم من جعل هيكل الشمس رب الهياكل والأرباب . وهذه الهياكل هى المدبّرة لكل مافى عالم الكون والفساد على ماسلف ذكره فى تعريف مذهب الفريق الأول . وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات وانها أحياء ناطقة بأن حدوث الحوادث اما أن يكون مستنداً إلى حادث أو قديم ولا جائز أن يكون مستنداً إلى حادث إذ الكلام فيه كالكلام فى الأول والتسلسل والدور محالان فلم يبق إلا أن يكون مستنداً

إلى ماهو فى نفسه قديم وذلك القديم اما أن يكون موجباً بذاته أو بالاختيار .فان كان الأول ، فاما أن يكون كل مالابدّ منه فى إيجاد الحوادث متحققامعه ،أو انه متوقف على تجدد . فان كان الأول فيلزم قدم المعلوم والقدم علته وشرطه محال . وان كان الثانى، فالكلام فى تجدّد ذلك الأمر.كالكلام فى الأول وهو تسلسل . فلم يبق الا أن يكون فاعلاً مختاراً وليس فى عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار إلا الأفلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها أحياء ناطقة .

الفرقة الثالثة

أصحاب الأشخاص : وهؤلاء زعموا انه إذا كان لابدّ من متوسط مرئي فالكواكب وان كانت مرئية ، إلا انها قد ترى فى وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها وصفائها نهاراً فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نصب أعيننا تكون لنا وسيلة إلى الهياكل التى هى وسيلة إلى الروحانيات التى هى وسيلة إلى الله تعالى. فاتخذوا الذلك أصناماً وصورة على صور الهياكل السبعة. كل صنم من جسم مشارك فى طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب فى الوقت والمكان واللبس والتختّم بما يناسبه والتحيز المناسب له على حسب ما يفعله أرباب الهياكل إلا أنها هى المعبودة على الحقيقة.وهذا هو الأشبه بسبب اتخاذ الأصنام .

ويحتمل أن يكون اتخاذ الأصنام بالنسبة إلى غير هـذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعباداتهم أو لأنها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية تعظيماً له . أو لأن قدماء أرباب الهيا كل والأصنام وعلمائهم ، ركبوا فراغ طلاسم ووضعوها فيها وأمروهم بتعظيمها لتبقى محفوظة بها . وإلا فاعتقاد الالوهيَّة فيما اتخذوه صوراً من الأخشاب والأحجار وكونه خالقاً لمن صوّره ومبدعاً لما وجوده قبل وجوده من العالم العلوى والسفلى ، مما لا يستجيزه عقل عاقل . بل البداهة شاهدة بردّه وإبطاله وان وقع ذلك معتقداً لبعض الرقاع (كذا) ومن لا خلاق له من العوام منهم ، فلا يلتفت اليه ولا معول عليه .

الفرقة الرابعة

الحلولية . (وقد سماها ابن بطوطه وغيره من ثقات المؤرخين بالحرّانية وهو الأصح عندنا)وهؤلاء زعموا ان الاله المعبود واحد فى ذاته وانه أبدع أجرام الأفلاك وما فيهامن الكواكب وجعل الكواكب مدبّرة لما فى العالم السفلى فالكواكب آباء أحياء ناطقة والعناصر أمهات وماتؤديه الآباء إلى الأمهات، تقبلها بأرحامها فتحمل من ذلك المواليد وهى المركبات والاله تعالى يظهر فى الكواكب السبعة ويتشخّص بأشخاصها من غير تعدد فى ذاته وقد يظهر أيضاً فى الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة وهى ما كان

من المواليد وقد يتركب من صفو العناصر دون كدرها واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه، إما بذاته وإما بصفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص. وزعموا ان الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح والأشياء الخسيسة الدنيئة كالحشرات الأرضية ونحوها بل هى واقعة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدورة. وزعموا أيضاً أنه على رأس ستة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحانى على رأس الدور الآخر وكذا إلى ما يتناهى؛ وان الثواب والعقاب على أفعال الخير والشرّ كل دور واقع لكن فى الدور الذى بعده فى هذه الدار لا فى غيرها.

الفرق بين فرق الصابئة

لعلّ التقسيم الذى ذكرناه للآمدى كان فيما يخص الصابئة على الأطلاق وفى مختلف عصورها. أما بحثنا الآن فى التفريق بين فرقها، فانما يعنى الصابئة الموجودة الآن والتى نوّه عنها الأقدمون وذكرها القرآن الكريم.

ومن المتعذر جداً أن يتوفق الباحث إلى معرفة ما بين هذه الفرق من الرابطة. فقد ذكر القرآن الكريم قسماً من الصابئة

وفسرها المفسرون بعد أن نسبوا لها أصولا وتقاليد تختلف كثيراً عن الصابئة الحرانية التى سيجىء البحث عنها . كما ان هذين القسمين من الصابئة يختلفان كثيرا عن صابئة البطائح المبثوثين الآن فى مدن العراق النهرية . والحق ان كل فرقة من هذه الفرق تختلف فى أصول معتقداتها عن الأخرى إختلافاً واسعاً . فقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن ، بلاد العرب ومصر قبل الاسلام وقبل النصرانية واليهودية، وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل. ولهذا فسيقتصر بحثنا على القسمين الأخيرين من الصابئة ،أى الحرانيين وصابئة البطائح مع العلم بأن كلا من هذين القسمين قدأخذ الشىء الكثير ممن تقدمه من الصابئة الذين ذكرهم القرآن المبين ومع العلم بأن الجميع قد عبدوا الكواكب وألّهوا النجوم .

الصابئة الحرانية

جاء فى ص ٣٢٠ من الفهرست لابن النديم أبى الفرج محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق الوراق البغدادى المتوفى عام ٣٨٥ هـ (طبعة أوربا)ماملخصه : —

قال أبو يوسف ايشاع القطيعى النصرانى فى كتابه فى الكشف عن مذاهب الحرانيين المعروفين فى عصرنا بالصابئة : إن الخليفة العباسى المأمون اجتاز فى آخر أيامه بديار مضر (قرب ديار بكر) قاصداً غزو الروم فتلقاه الناس يدعون وكان بينهم جماعة من الحرانيين

وكان زيّهم إذ ذاك لبس الأقبية وشعورهم طويلة جداً ، فأنكر المأمون عليهم زيّهم وسألهم قائلاً من أنتم ؟ فقالوا نحن الحرّانية . فقال أنصارى أنتم ؟ قالوا لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا لا . قال فمجوس أنتم ؟ قالوا لا . فغضب المأمون وقال أفلكم كتاب أم نبى؟ فجمجموا فى القول . فقال لهم فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس فى أيام والدى الرشيد وأنتم حلال دماؤكم ولا ذمة لكم . فقالوا نحن نؤدّى الجزية . فقال المأمون انما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ورد ذكرهم فى القرآن ولستم من هؤلاء فاختاروا أحد أمرين: إما أن تنتحلوا دين الاسلام، أو ديناً من الأديان التى ذكرها الله فى كتابه ، وإلا قتلتكم عن آخركم وقد أمهلتكم حتى عودتى من سفرى . فخاف الحرّانيون على حياتهم وأسلم بعضهم وقص البعض الآخر شعره وصاروا فى اضطراب عظيم. ثم راجعوا شيخاً فاضلاً وفقيهاً كبيراً من فقهاء حرّان وسألوه عن تدبير لهم فقال لهم الشيخ لاتخافوا ولاتضطربوا فانى أوصلكم إلى طريق النجاح . فجمعوا له مالاً كثيراً وصاروا يراجعونه فى كلّ يوم حتى قال لهم فى آخر الأمر (إذا رجع المأمون من حربه وسألكم عن دينكم فقولوا له نحن الصابئون فهذا اسم دين قديم قد ذكره الله فى كتابه فانتحلوه وأنكم لناجون) .

واتفق ان المأمون مات فى سفره هذا (عام ١٢٨ هـ) وكان

الحرانيون قد انتحلوا هذا الاسم من ذلك الوقت، ولم يكن بحرّان يومئذ قوم يعرفون بالصابئة. ثم رأى المسلمون أن يعقبوا خطة المأمون حتى جعلوا الحرانى يتظاهر بالاسلام وإذا أراد الزواج تزوج بحرانية من طائفته فاذا ولدت له زوجته ذكراً، جعله مسلماً. أما إذا ولدت له أنثى، جعلها حرّانية أى صبيّة بالمعنى الذى ألمعنا إليه وهذه كانت سبيل أهل ترعوز وسلمسين القريتين المشهورتين بالقرب من حران إلى نحو ٢٠ سنة اهـ.

والذى يظهر من أسئلة المأمون لهؤلاء القوم الذين صادفهم فى سفره والذين لم يكن على علم بهم مع ما كان عليه من سعة العلم والاطلاع على مختلف الأديان والملل حيث كان يجتمع فى مجلسه العلمي ورؤساء المذاهب والأديان والنحل على اختلافها، أنهم لم يكونوا فى بدء الأمر صابئة وليست لهم علاقة بالصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم، وانهم اضطروا إلى أن يستشيروا رؤساءهم وكهنتهم فى الأمر. ولو كانوا من فرق الصابئة لما أشكل عليهم الأمر ولما احتاجوا إلى أن ينتحلوا هذا الاسم انتحالاً.

على اننا نعرف من تاريخ الصابئة الحاليين الذين هم أقرب إلى الصابئة الأقدمين، انهم يعيشون على ضفاف الأنهر دجلة والفرات وأن لاأثر لديانة الصابئة فى حرّان ولا معبد لهم مقدس هناك وما شوهد من طقوسهم الدينية وطرز عبادتهم وانتسابهم

إلى الأرض التى يسكنونها دون العبادة التى يعبدونها ، كل ذلك يدلّنا على أن الحرانية دين قديم أراد أصحابه البقاء عليه فانتحلوا له اسم الصابئة .

وقد نقلت دائرتا المعارف الانجليزية والافرنسية كلام ابن النديم على علاته ونقله أيضاً كتاب ألمانى ضخم لم يحضرنا اسمه فلم يناقشوه مع ماعرف به الألمانيون وسائر المستشرقين من التمحيص والتدقيق ،فكأنهم اكتفوا بهذا الكلام ولم يفرقوا بين ماذكره القرآن من الصابئة وبين الصابئة الحرانية !

صابئة البطائح

يعيش بين ظهرانينا فى العراق قسم من الناس لهم تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم . ويكادون أن يكونوا ممتازين بكل مظاهر حياتهم وحتى بأشكالهم وسحنة وجوههم ويطلق عليهم اسم (الصابئة) وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد لا يكونون . إلا أن الشئ المحقق هو أن قسماً كبيراً من عبادة الصابئة القديمة وطقوس دينهم؛ بارزة بين معتقدات وطقوس هؤلاء القوم . فعبادة النجوم واستقبال نجم القطب وتأليه الكواكب وغير ذلك من أصول الدين الصابئى مما يتدين به هذا المجموع الممتاز .

وقد يتعرّف الباحث من اللغة التى يتكلم بها هؤلاء ومن إسبالهم شعور لحاهم ورؤوسهم ، أنهم شعب غريب نزح إلى هذه

البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من تقاليد وعادات والتزم بالسكنى على ضفاف الأنهر وبقرب المياه الجارية نظراً لما يقيمه من الطقوس التى لاتتم إلا بالارتماس فى الماء الجارى (وسيأتى تفصيل ذلك) لذا عرف هـذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة إلى بطائح العراق المشهورة .

أما ان هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الحرانية أو أنه من بقية الصابئة الأقدمين ، فأمر مشكوك فيه وموكول إلى فحص التاريخ الدقيق .

ونظن أن أحسن رواية ـ وقد تكون أقربها إلى الحقيقة ـ هى التى أثبتها الهنرى يونيون فى كتابه الافرنسى الموسوم بـ (الرقم المندائية) المطبوع فى عام ١٨٩٨ فقد جاء فى ص ٢٢٤ منه تحت عنوان (الفرقة الدستائية) وهى المندائية التى اشتهر بها الصابئة الحاليون مامضمونه: ان صاحبها (أى صاحب هذه الفرقة) كان متسولاً وقد جاء من بلاد ما بين الزابين إلى ميسان (أى جنوبى العراق) للتسوّل وكان مسيحياً اسمه (دبدا) واسم أمه (أم كشطا) ثم توطن ضفاف نهر قارون وأسس ديانة جديدة وعقائد مأخوذ معظمها من المارقيونيين والمانويين والكنتيين وغيرها من الفرق الصابئة، ثم توسعت هذه الطائفة على ممرّ السنين وسموا بالصابئة المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لاتتم إلا بالاغتسال فى الماء الجارى اهـ .

والذى يؤسفنا كثيراً ويجعل تاريخ الصابئة مفصولاً وغير مرتبط الحلقات، خلو هذا التلخيص من الزمن الذى يعين قدوم (دبدا) إلى جنوبى العراق (ميسان) الأمر الذى يوقفنا على تاريخ منشأ صابئة البطائح والصلة بينهم وبين الصابئة الحرانية . ومع ذلك فهو لايخلو من فائدة تاريخية تكشف لنا عن تاريخ غامض من تاريخ الصابئة .

عقائد الصابئة وطقوسهم

كانت المعلومات المتقدمة مقصورة على التفريق بين الصابئة قديماً وحديثاً وعلى بيان فرقهم ومنشأ دياناتهم من وجهة تاريخية بحتة . أما ماسندخل فيه الآن ، فهو البحث فى عقائدهم وطقوسهم الدينية ، وربما كان فى دراسة العقائد والطقوس على ما هى عليه من التقطع والخبط والخلط ، الشيء الكثير من الفوائد التاريخية . وربما كان تعرّف الباحث بوجهة النظر الدينى ، يوصله الى أزمنة التاريخ والى تحديد العصور التى تمر بها الأمم المتدينة بذلك الدين ، وما بأيديهم من المعتقدات انما هو مجموع ما يتديّن به صابئة البطائح اليوم .

وقد علمنا أن فى طقوس هؤلاء وآدابهم الدينية الشيء الكثير من ديانة الصابئة الأقدمين ومع ذلك فسنضطر فى بحثنا الى ذكر

الشئ القليل مما توصلنا اليه من عقائد الصابئة الحرانية التى نرى أن هناك فروقاً جوهرية تستدعى إفرادها بالذكر وتعيينها من بين مواضيع البحث .

أما مصادر ما سنذكره فتنحصر فى التحرّيات الشخصية والنقل عن ما دبجته أقلام مشاهير الكتاب والمؤلفين والمؤرخين وكله مما تطمئن اليه النفوس اطمئنانا دون أن نعض عليه بضرس اليقين القاطع ، نظراً لما بين تلك المباحث والآراء من التباين العظيم ، وكفى أن يكون ما نكتبه فى هذا الموضوع خدمة تاريخية بذلنا فيها الجهد وأفرغنا فيها الوسع فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فكرة الخالق وبدء الخليقة

١ً — فكرة الخالق : تعتقد الصابئة بأن الخالق واحد أزلي لا أوّل لوجوده ولا نهاية له. منزه عن عالم المادة والطبيعة وهو علة وجود الأشياء ومكونها .

ولا يكاد يختلف اعتقادهم فى الخالق عن اعتقاد المسلمين فيه الا انهم افترضوا له صورة معنوية خلق آدم على نموذجها كما سيجيء البحث عنه فى ذلك .

٢ً — بدء الخليقة : كان المخلوق الأول لله ، شخصاً روحانياً

يدعى (هيّ قدمايا) أى « الحيّ القديم » وقد خلقه الله وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة التى لا تحصى . ثم خلق الحيّ الثانى (هيّ تنيانى) أى « المخلوق الثانى » وخلق معه كذلك عوالم لا تعدّ مملوءة بالنفوس المقدسة . ثم خلق (هيّ تليثائي) أى « المخلوق الثالث » وخلق معه ما خلق مع سابقيه . وهذه النفوس التى تقطن هـذه العوالم ، ينقسمون بحسب رتبهم الى قسمين : عوام وملوك .ويقال للقسم الأول (انزى) وللقسم الثانى (ملكى)

ثم خلقت عوالم سبعة تدعى (آلمي دهشوخا) أى عوالم الظلام التى تستمد نورها من الشمس وسكانها الآن ينقسمون الى قسمين : عوام وملوك ،وأرضنا من جملة هذه العوالم السبعة .

أما هيأة الأرض فيرونها بشكل مربع وأنها ثابتة غير متحرّكة ولكن لها حركة خاصة وهى مقامة على هوائين ، هواء خارجى وآخر داخلى ، وتحت الأرض ماء انبسطت عليه . فلما أتم خلق الأرض ، أنزلت الملائكة من عوالم الأنوار ، بذوراً للأشجار وفتحت طريقاً للهواء ولماء الحياة الذى تقوم عليه حياة الأجسام الحية والنامية وهو واسطة ارتباط العوالم بعضها ببعض ، وفتحت طريقاً آخر للنور تستمد منه الشمس أشعتها لتنير بقية الكواكب بالواسطة .

وتتكون السماء من سبع طبقات تقع الشمس فى الطبقة

الرابعة والقمر في السابعة (وهي في نظرهم القريبة منا) والأرض والسماء مركبان من مادتين هي النار والماء ومن هاتين المادتين تكوّنت الأرض والسماء . وكذلك جميع الكائنات الحية فانها مركبة من طبقتين الماء والنار ولكنها تمتاز بأربع طبائع أخرى وهي الصفراء والسوداء والبلغم والرطوبة .

ولهم كتاب خاص في علم تشريح جسم الانسان وتركيبه يدعى (تفسير پغره) وآخر في جغرافية الأرض وعلم الفلك يدعى (أسفر ملواشا) وبه يستطيع الكاهن أن يلمّ بما يحدث في الكون من الحوادث والتغيرات (انظر البحث في كتب الصابئة المقدسة) .

الكون في نظر الصابئة

ان لنشوء فكرة السرّ والعلن عند الصابئة أثراً في كثير من المعتقدات . فهم يرون أن لكل كائن وجودين : علني وسرى ، وللكون أيضا وجودان كون سرى ويسمونه (مشوني كشطه) وآخر علني ويدعونه (أره تيبل) ـ أى الأرض التي تبلى ـ ويرون دائما أن للوجود السرى امتيازاً على الوجود العلني . فالعالم السرّى قطر فسيح أكبر من العالم العلني الذي هو عالمنا المسكون وهو مستور عنا لا يمكننا أن نشاهده حال حياتنا ، وله شرف المنزلة بالنسبة الى عالمنا فهو منه بمنزلة اليمين من الشمال . وهذا الاعتبار

(أى اليمين والشمال) يشاهد فى كثير من تعابيرهم التى يقسمون بها الأشياء والموجودات .

أما سكان هذا العالم فهم بشر مثلنا الا أنهم صابئة منزّهون عن كل وصمة . ولا يخلو هذا العالم من الموت والفناء أيضاً فالبشر الذي فيه ، يموت كما نموت نحن الا أنه ينتقل الى عالم آخر يدعونه (آلمى دَنْهُورُو) ـ أى عالم الأنوار أو مقام النعيم ـ من غير أن يمرّ بموضع من مواضع العذاب . وهذا ما يقابل عالم الأرواح فى نظر المسلمين .

أما العالم الثانى أى (أرَه تيبل) فهو عالم الكون المادى المشاهد الذى يطرأ عليه الفناء وينتقل من فيه الى عالم الأنوار بحسب درجته .

ولما كان الوجود السرى مثالا للوجود العانى ، كان فى العالم السرى آدم مخصوص يدعى (كاسيا) — أى آدم المستور — وتدعى زوجته (كانات) — أى تامة الجمال — كما أن لعالمنا هذا آدم يدعى (آدم پغره) — أى آدم المادى — وتسمى زوجته حواء .

ولأجل أن يتخلص الصابئة من قضية التزاوج بين الاخوة في بدء الخليقة ، اضطروا الى القول بأن لكل من هذين الآدمين ابنة وولد فجمع بينهما (هيوه زيوه) — أى جبرائيل — فى العالم المنظور وزوّج كلا من الولدين بأخت الآخر ليتم التناسل البشري

على طريقة مشروعة . فالعامة من الصابئة تدعى وفقاً لهذه الاسطورة، انهم من أولاد آدم غير المنظور . أما علماء الدين فيرون خلاف ذلك لأنهم يستبعدون خروج الأشياء المنظورة المشاهدة فى عالم غير منظور ومشاهد .

خلقة آدم

(كوره قدمايه) اسم لآدم (ع) أى أول الرجال أو (آدم بغره) وقد أراد الله أن يخلق آدم على صورته فانزل (ابتاهيل) وهو ابن (هيوه زيوه) أى جبرائيل الى الأرض فخلقه على صورة من التراب وخلق من ضلعه الأيسر زوجته (حواء) ثم أنزل الروح المقدسة فى جسمى آدم وزوجته، وعلم الملائكةُ آدمَ كل ما فى الدنيا من صنائع وحرف ومهن وإجراء المياه ووضع عدد السنين والأشهر والأيام والأوقات وغير ذلك ،وأنزلت عليه الكتب المقدسة التى فيها فروض العبادة بأنواعها المختلفة. ثم أمر الله ملائكة النار بالسجود لآدم فسجدوا الا (هاديبشه) وهو إبليس فانه لم يسجد إذ قال خلقنى الله من نار وخلق آدم من تراب فكيف أسجد له ؟ فطرده الله ولعنه. ثم جرى التناسل بين آدم وولده على نحو ما فصلناه فى بحثنا عن (الكون فى نظر الصابئة) ووضعوا للعالم تاريخاً قدره ٣٠٩ر٥٨٧ سنوات أسندوه الى أساطير لا يقرّها عقل ولا يقبل بها منطق .

فكرة الخير والشر

فكرة الخير والشر من الفكر التي بحث فيها البشر بحثاً مستفيضاً في الأزمنة القديمة والحديثة. ولا تزال الآثار المستخرجة من بطون الأرض، ترينا تطوّر هذه الفكرة واختلاف نظر البشر اليها. إلا أن هذه الاختلافات والتطورات تنحصر فى وجهات ثلاث. أحدها تقول بأن الله تعالى مصدر للخير والشر كما انه خالق لهما وما العبد إلا آلة تصرّفها الارادة فى الكلية لاحول له ولا قوة ولا اختيار وهذا مادعاه المسلمون بفكرة الجبر.

والثانية ترى ان فاعل الخير والشر هو الانسان وان الله مكوّن كل الأشياء والعبد يملك إرادة حرة واختياراً مطلقاً.

أما الثالثة فتفصل وترى ان الخير من الله والشر من الانسان وللانسان عقل يميز بينهما فله أن يعمل الخير وله أن يرتكب الشر.

والصابئة ترى رأى الفريق الثانى أى أن الخير والشر موجودان من قبل الانسان ويحدثان بفعله وان ارادته الحرة واختياره المطلق هو الذى يجعله مسؤولا أمام الله. وهم يرون ان الله قد بين للانسان طريق الخير وطريق الشر فله الحرية المطلقة فى إتيان ماشاء وترك مايشاء.

الموت فى نظر الصابئة

يعتقد الصابئة ان الموت انتقال لافناء واندثار. فالروح بعد

أن تخرج من هذا العالم، لاتفنى ولا تنعدم وانما تنتقل من عالم إلى آخر فتتصل بعالم الأنوار (آلمى دنهورو) ان كانت طيبة وتبقى حية مخلدة فى ذلك العالم متنعمة بأنواع الملذات . وتنتقل الى أنواع العذاب ان كانت خبيثة . وربما كان تعذيب هذه الروح بالباسها شكلا آخر واظهارها فى جسم من الأجسام الذى يكون وجودها فيه عذابا وشقاء . فالعذاب فى نظرهم مهما كان نوعه ، انما هو تطهير للروح من أدران الذنوب وهذا ما جعل لفكرة التناسخ عندهم أصلا .

أما المراسم التى تجرى للجناز ،فتقام قبل خروج الروح من البدن. لأنهم يعتقدون بأن الروح لا تطهر اذا لم تخرج من بدن طاهر ولهذا وجب عندهم تغسيل الميت وتكفينه ساعة احتضاره لتخرج الروح من جسده وهو طاهر (١) . فاذا مات نجس وحرم مسه وأصبح من المتعذر تطهيره

---

(١) نادرة طريفة أقصها على القارىء الكريم :

كنت فى عام ١٩٢٢ طالباً فى دار المعلمين ببغداد وكان فى الدار المذكور شاب صابئى يدعى « مسلم ضمد » من أهالى الناصرية. أصيب فى خريف ذلك العام بمرض الزائدة الدودية فأجريت له عملية مستعجلة ظن أهلوه انها ستؤدى حتما إلى وفاته . وبعد مضى خمسة أيام على العملية ، طلبت أمه إلى السلطة الصحية أن تسمح لها بأخذ ولدها لتطبيق المراسم الدينية له قبل أن تزهق روحه فيموت كافراً فلم تر السلطة مانعا فسمحت لها بأخذ المريض المحتضر ولكن ماذا عملت به أمه ؟ ؟

وتجرى مراسم نقل الميت ودفنه على وجه مخصوص فيحمل الجثة أربعة أشخاص من درجة (حلالى) وهم رجال مقدسون يلبسون لباساً خاصاً بنقل الأموات. أما شكل هذا اللباس فيكون أبيضاً ويشد الوسط بمنطقة من صوف، فيتقدمون بالميت الى مرقده الأخير بين الصمت والخشوع لأن البكاء والعويل محرمان على الميت وهم يعتقدون بأن كل دمعة تذرفها العين على الفقيد، تكوّن نهراً كبيراً فى طريق نفسه تكاد تعجز عن قطعه.

أما القبر فيكون بشكل مستطيل ويحفر عند رأس الميت حفرة صغيرة ضيقة يدخل فيها الميت الى صدره ويكون وجهه ورجلاه متجهتان نحو الجدى، ثم تصف الأحجار من صدره الى رجليه ثم تنهال الأتربة عليه

ولهم اسطورة يتناقلونها فى سبب وضع الحجارة على كفن

هذا سؤال غريب، وأغرب منه جوابه!

أخذت الوالدة ولدها إلى شاطىء ال(دجلة) ورفعت الأربطة التى ضمدت بها جروح ولدها ثم بدأت تصب الماء البارد الجارى على القروح وهى داملة والولد يصيح ويستغيث فلم يجد مشفقا عليه. وهكذا غسلوه وكفنوه وربطوه بالقصب فى انتظار زهوق روحه. وجاء أحد أساتذتنا فى المدرسة بعد أربع ساعات فوضع (آلة الترمومتر) على جلد الصبى من بين القصب ولاحظ أن درجة الحرارة آخذة بالتحسن فأخبر الأطباء بذلك فبادروا لتضميد جروح « مسلم ضمد » من جديد وكانت النتيجة انه شفى بعد أيام قليلة واجتاز امتحان الدراسة فى تلك السنة بنجاح باهر فتأمل

الميت مباشرة. وهي أن كثيراً من آبائهم القدماء قد نبشوا قبور موتاهم فوجدوا أن أكفانهم قد اجتمعت فى أفواههم وكان ذلك سبباً لموت أهل الميت من بعده بسرعة. فلأجل أن لا يسرع الموت الى أهل الميت، توضع هذه الأحجار على صدره. أما وضع التراب عليه مباشرة فهى سيرة عمل بها (مندانى) لما انهال التراب على جسد يحي (ع)

ومتى عاد المشيعون من مراسم الدفن، أقاموا مأتما لروح الفقيد فى أربعة أيام متفرقة وهى اليوم الأول للوفاة والثالث والسابع والـ٣٥ منه، وعلى زوجة الفقيد أن لا تقص شعرها احداداً على زوجها، لأنها ترتكب بذلك ذنباً لا يغتفر. ومن مات فجأة يتقدم أحد علمائهم من درجة (كَنزوره) فيقوم بمراسم التكفير والتعميد لأن الموت فجأة يسبب اعتبار الميت كافرا كما لو كان قد مات بلا مراسم الجناز.

مابعد الموت

فاذا مات الميت، استقبل روحه ملكان يدعى أحدهما (صاوريل نشرويه) ويسمى الثانى (قاميرزيوره) وهما نقلة الأرواح فيحاسباه على عمله فى دنياه حسناً كان أم سيئاً. فان كان من أصحاب الأعمال الحسنى فان روحه تذهب إلى عالم الأنوار (آلمى دنهورو) من أقرب طريق تقطع فيه العوالم السبع فى خمسة

وأربعين يوماً وتنتهى إلى الميزان الذى تشاهد نجماته فى السماء ولكن فى عالم الأنوار فتوزن فيه الروح ثم يسمح لها بالدخول فى عالم الأنوار .

وأول روح وزنت فى هذا الميزان فى اعتقادهم ، هى روح شيت بن آدم (ع) الذى مات قبل أبيه لأن الله تعالى طلب إلى آدم أن يلبى دعوته فأبى وكان عمره إذ ذاك ألف سنة ، وطلب أن يعيش ألف سنة أخرى . أما عمر ابنه شيت فقد كان ٨٠ سنة ولم يكن ليتزوج وبذلك أصبح عمر البشر غير محدود . فيموت الطفل الصغير والشاب غير المتزوج على ماهو جار عندنا اليوم .

ولو كان آدم قَبِلَ أن يموت عند ماطلب اليه الرب ذلك ، لأصبح للبشر عمراً واحداً ينتهى إليه فيموت . أما إذا كانت الروح خبيثة فتبقى فى العذاب حسب ماتستحق .

وأنواع العذاب عندهم لاتقتصر على الادخال فى النار فحسب ، بل هى تختلف أشكالها فتكون بالحبس فى محل لاهواء فيه ، أو بضبطها بين جبلين ، أو بتعذيبها في النار. فاذا خلصت من الذنوب وقطعت العوالم السبعة فى مدة تتناسب مع عذابها ؛ وصلت إلى الميزان فتوزن فيه كسابقتها .

المعاد

المعاد هو الحياة الآخرة التى تحيي بها النفس فى عالم الأنوار « آلمى دنهورو » وتتنعم بما يتنعم به القدّيسون والروحيون هناك والناس كلهم صائرون إلى هذا العالم رأساً أو بعد تطهيرهم من خطاياهم بالعذاب المتناسب . أما هذه الأرض التى نسكنها فتعود بعد أن تفنى وتندثر هى وعوالم الظلمة التى تستمد نورها من الشمس .

ويختلف المعاد عند الصابئة عنه عند المسلمين بأن الأولين يرون أن المجازات والعقوبات تجرى فى عالم قبل عالم الآخرة . أما عند المسلمين فانهم يرون أن العقاب والثواب يكونان فى عالم الآخرة أيضاً كما هو فى عالم البرزخ المتوسط .

الصوم عند الصابئة

لم تخل الشرائع القديمة من ذكر الصوم وفرضه ومن تعيينه بمدة معلومة . ففى آثار البابليين والمصريين القدماء، وفى الحفريات الكلدانية، ما يؤيد أن الصوم عبادة عرفها البشر منذ القدم. وقد جاء الاسلام مؤيداً فرض هذه الفريضة فقال الله تعالى فى محكم كتابه المجيد (ياأيها الذين آمنو كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) .

أما شريعة الصابئين ، فنظراً لقدمها وانقطاع القائمين بها عن

دراسة العلوم والفنون، تكاد تذهب فيها بعض الطقوس، أو تتغير،
فبينما نجد ابن النديم المؤرخ يذكر لنا فرض الصوم عند الحرّانية
من الصابئين حيث يقول عليهم — ص ٤٤٣ من الفهرست —
(والمفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوماً أولها لثمان مضين من
اجتماع آذار وتسعة أخر أولها لتسع بقين من اجتماع كانون الأول
وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط وهى أعظمها. ولهم
تنفّل من صيامهم وهى ستة عشر وسبعة وعشرون يوماً)، إذ نجد
الصابئة الحاليين يحرمون الصيام فى طقوسهم الدينية ويرون انه
من باب تحريم ما أحلّه الله وان كانوا يتظاهرون به فى أول رمضان
مجاراة لمجاوريهم من المسلمين كما كان يفعل أبو اسحق الصابئ مع
الشريف الرضى. ونجدهم أيضاً يمتنعون عن أكل اللحوم ٣٦ يوماً
على نحو ما هو عند النصارى. وكل هذه المتناقضات فى عقائدهم،
إنما جاءت اليهم من تفرقهم ومن جهل علمائهم بما يحدث فى الفنون
وما يصل اليه البشر من الاكتشافات والعلوم.

الصلاة عندهم

الصلاة عند المتديّنين، رمز الخضوع والانقياد لآراء الشريعة.
فالمصلى يؤدّى بحركاته وأعماله، فروضاً اعتقادية تدل عليها تلك
الحركات والأعمال. وإذا كان الصوم قديماً وموجوداً فى شرائع
الأمم البائدة، فان الصلاة أقدم منه بكثير. فقد صلى البشر القديم

وانحنى أمام مظاهر الطبيعة حينما أرهبته وأخافته وهو لايزال حتى الآن ينحنى تعظيماً واجلالاً أمام مايتصوّره من القوى فى هذا الكون .

وقد تكون الصابئة من أشد الأمم محافظة على طقوسهم وعاداتهم. لذلك لانستبعد أن تكون صلاتهم هى أول وضع عرفه البشر للصلاة وفى تأدية فروض العبادة .

أما هذه الأوقات التى خصصوها لتأدية الصلاة فهى تدلنا بوضوح إلى عبادة البشر الأولى التى كان يقدّس بها مظاهر الطبيعة.

وتشتمل إقامة هذه الصلاة على مراسم وطقوس أضيفت عليها على توالى الأزمان تبدأ بالطهارة والاغتسال وتنتهى بتأدية الصلاة وإليك البيان : —

١ً — *الطهارة* : لا تصح الصلاة عند الصابئة بدون طهارة شأنها عند بقية الأمم المتمدينة . وكما تمنع الجنابة من إتيان الصلاة ومن تأدية الفروض الدينية عندنا معاشر المسلمين ، كذلك تمنع عندهم من تأدية الصلاة . أما غسل الجنابة فمشروط عندهم أن يكون بالماء الحي ، وهو الماء غير المقطوع من مجراه الطبيعى فماء الحمام مثلا فى نظرهم ، ليس بحى لانقطاعه عن مجراه . أما كيفية الغسل فهى عبارة عن الارتماس فى الماء الحي من دون تلاوة أى شيء. ولكن الغسل وحده لا يكفى عندهم فلا بد من ضم الوضوء

اليه وهو يجرى عقب الغسل بأوضاع خاصة .

٢ً — **الوضوء** : يجلس المتوضئ على ضفة النهر ويتلو الرخصة (النيّة) بلغتهم المندائية ثم يغسل يديه حتى المرفقين ويعقبها بغسل وجهه ثم عورته ثم ركبتيه وكل ذلك ثلاثاً . ثم يمسح جبينه وأذنيه وأنفه ويتلو فى كل ذلك أدعية وتلاوات خاصة . ثم يدخل رجله اليمنى فى الماء ثم اليسرى ويتلو خلال ذلك هذا الدعاء (بشميهون أوهيّ بولى أسوتا وزكوتا نهويلك يا أب ابوهن ملكا ميرياويس بردنا ربا آدمياهى) ومعناه (السلام عليك أيها الماء الجارى من تحت عرش الرب الذى يحيى بك كل من فى الأرض) .

أما مفسدات الوضوء فهى؛ عبارة عن رعف الأنف، أو خروج الدم من الفم أولمس لحم أجنبى أو خروج ريح . كل هذه تفسد الطهارة وتوجب اعادتها والوضوء واجب لكل صلاة .

٣ً — **الصلاة** : أما صلاتهم فانها تقتصر على الوقوف والركوع والجلوس على الأرض بلا سجود وتستغرق تلاوة الأذكار فيها ساعة وربع ساعة وتؤدى ثلاث مرات فى اليوم الواحد قبيل طلوع الشمس وعند زوالها وقبيل غروبها .

وتبدأ الصلاة بالأذان وهو عبارة عن أذكار مندائية تتلى بين الحاضرين بدون رفع صوت أو وقوف على محل شاهق كما يفعل المسلمون . ويتوجه المصلي عندهم الى جهة الجدي

رافعاً يديه وقليلاً من رأسه مع انحناء قليل بلباس خاص يدعى (الرستة أو السفيفة) وهى منطقة تشد على الوسط . ثم يتلو سبع قراءات يمجد فيها الرب ويدعوه بأسمائه الحسنى ويستمد منه العفو والشفاء من الأمراض ورفع الكوارث عن قومه وطلب الاتصال بعالم الأنوار .

وترى الصابئة ان فرض الصلاة كان أولا على آدم أبى البشر بسبعة فروض يصلى منها خمسة فى الأوقات التى يؤدّى فيها المسلمون صلاتهم واثنتان فى غير هذه الأوقات. إلا أن شريعة آدم قد استمرّت الى أن جاء يحيى (ع) فنسخها بشريعته وجعل الصلاة ثلاثة فروض فى ثلاثة أوقات كما هى اليوم عندهم .

هذه هى صلاتهم فى الوقت الحاضر. وقد ذكر ابن النديم فى فهرسته، نوعاً من الصلاة كان يدين بها الحرانيون الذين ذكرنا أمرهم فيما مرّ وفيها شيء من الاختلاف عما تقدم . اذ ذكر (ان المفترض عليهم من الصلاة فى كل يوم ثلاث أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل لتنقضى مع طلوع الشمس وهى ثمان ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة . وثانيها يكون انقضاؤها مع زوال الشمس وهى خمس ركعات وثلاث سجدات فى كل ركعة . وثالثها مثل الثانية يكون انقضاؤها بعد غروب الشمس. وانما الزمت هذه الأوقات لمواضع الأوتاد الثلاثة وهى ؛ وتد

المشرق ووتد المغرب ووتد السماء . ولهم أيضاً صلاة نوافل بمنزلة الوتر وهى ثلاث فى كل يوم . الأولى فى الساعة الثانية من النهار والثانية فى الساعة التاسعة منه ، والثالثة فى الساعة الثالثة من الليل ولا تكون الصلاة الا على طهور) اه .

الزواج عندهم

يجوز للصابئى أن يتزوّج من النساء ما طاب له ، مثنى وثلاث ورباع متى تعهد بالمساواة بين زوجاته مساواة فعلية . وكما ان تعدد الزوجات جائز عندهم ، كذلك الطلاق عندهم فانه مشروع الا انهم يشترطون فيه الحجة البيّنة على ثبوت أسباب الطلاق وتتلخص هذه الأسباب فى أربعة أمور وهى : —

١ً — ثبوت الزنا ٢ً — عدم الاغتسال من الحيض

٣ً — ترك الصلاة ٤ً — السرقة

أما تنفيذ الطلاق فيشترطون فيه أن لا يكون على أيدى رؤسائهم الدينيين ، بل يرسل من أراد الطلاق الى المحاكم الشرعية الاسلامية لتبتّ فيه حتى إذا أراد الرجل أن يعيد النكاح على زوجته المطلقة ، استطاع ذلك بواسطة رجالهم الدينيين .

مراسم الزواج

وللزواج مراسم مخصوصة وتعميد مقرّر يجرى على أيدى رؤساء الدين بأوضاع خاصة تبدأ بارسال نسوة الى الخطيبة لتتأكد

من أنها لا تزال بكراً لأن العقد على الثيّب ينجس الكاهن الذى يتولى العقد فتتعذر عليه الطهارة .

ولما كان الماء أساس الحياة فى نظرهم ، فلا بدّ من اجراء مراسم الزواج في وسطه ، وهى ما يصطلحون عليها بالتعميد . وكيفية ذلك أن يأتى أحد كهنتهم من درجة (كَنزوره) مع مساعدين له من درجة (ترميده) — أى تلميذ — فيدخل الجميع مع الزوجة فى الماء الجارى فيرتمسون فيه ثلاث مرات ثم تخرج الزوجة وفى يدها مصباح للدلالة على أنها (عروس) لا يجوز لمسها لأن لمس العروسين خلال السبعة الأيام الأولى من العرس ، ينجسهما و يخلق لهما مشكلة دينية يصعب عليهما اتقاء شرها .

وتذهب العروس الى بيتها فيقرأ عليها الكاهن دعاء خاصاً ثم يعود بها الى الماء فيعمّدها ثانية كما عمدها أولاً . فاذا أتمّ التعميد الأخير ، أرسلها الى غرفة عرسها حيث تجلس على الـ (كلّة) — سرير العرس — تنتظر مجىء زوجها اليها

أما الزوج فيعمد كما تعمد الزوجة لأن الواجبات الدينية على الذكر والأنثى سواء فى نظرهم .

فاذا تمّ تطهير وتعميد الزوج ، يحضر مع وكيل للزوجة وجماعة من الأقارب والأصدقاء ورؤساء الدين المعلومين فى عريش من قصب وتوزع على الحاضرين أرغفة من الخبز الرقيق ليأكلوه

كناموس للزواج . فان لم يأكلوه ، يعطى اما للفقراء أو يلقى في الماء الجارى .

ثم يتقدّم الكاهن الذى قام بمراسم التعميد، فيلبس رداء خاصاً ويلبس العروسان ألبسة خاصة ويلقن وكيل الزوجة صيغة العقد التى تستمر قراءتها زهاء ثلاث ساعات. فاذا تم التلقين المذكور ، تخلع تلك الألبسة الخاصة وتستبدل بألبسة العرس .

وحرام على العروسين وعلى جميع أفراد الطائفة ارتداء اللون الأزرق فى كل حال كما هو الحال عند اليزيدية (عبدة الشيطان) ثم يأخذ الكاهن الزوج الى الزوجة ويلصق ظهره بظهرها ويأمر الزوجة بأن تقابله وتنطح رأسه ثلاث مرات ولكن برفق تتلى خلالها أدعية خاصة ،ثم يكسر كوزين معدين لهذه الغاية وينصرف الحضور حيث يكون فى استطاعة الزوج مواقعة زوجته فى الساعة التى يختارها له .

أما المهر فيفرض على الزوج مقدماً ومؤخراً ويجوز أخذه فى وقت واحد . ولا تكاد تختلف بقية العادات الموجودة عندهم فى الزواج عما هى عليه عند المسلمين .

العدة والحيض والنفاس

أقل مدة الحيض عند الصابئة ثلاثة أيام ، وأكثرها سبعة وأما مدة النفاس عندهم فهى ٣٠ يوماً فلا تحل للزوج مواقعة

زوجته في بحر هذه المدة حتى ولو طهرت قبل انقضائها . وبعد انقضاء مدة الحيض، تذهب الزوجة الى الماء الجاري بجميع ألبستها فترتمس فيه ثلاث مرات . أما النفساء فتعمل هذا الارتماس بألبستها بعد مضي الأسبوع الأول على النفاس على أن تجدّده بعد انقضاء الثلاثين يوماً وهي مدة النفاس القانونية كما تقدم .

وكما لا يجوز للحائض أن تلمس أي شيء في خلال مدة الحيض ، كذلك لا يجوز للنفساء أن تخالط أو تجتمع بأي أحد ولا أن تطبخ شيئاً في بيتها ولا أن تقوم بأية خدمة بيتية . ومن عمل ذلك عمداً كان أم سهواً ، نجس ووجب تعميده .

الاعتراف عند الصابئة

تقضي العادة الدينية عند المسيحيين أنه اذا أذنب أحدهم ، يستطيع أن يكفّر عن ذنبه باعترافه أمام الكاهن المختص. وباستطاعة الكاهن أن يكفّر له خطاياه بأن يقول له (احلك من إثمك باسم يسوع الاله الذي أعطاني القوة لهذه الغاية . . .) ويضع عليه شروطاً يشترط عليه تنفيذها فاذا أتمها، غفرت له خطاياه .

وعند الصابئة أيضاً نوع من الاعتراف والغفران يشبه ما هو مقرّر وموجود عند النصارى ولكنه يكون بصورة سرية جداً أشد مما هي عند النصارى . وكيفية ذلك انهم يعجنون قليلاً من البرّ بلا ملح ولا خمير ويجعلونه رقاقاً في أرق ما يستطاع

ويخبزونه فى تنور جديد، ثم يقطعونه قطعاً مستديرة يقدسها كهنتهم، فاذا تم تقديسها، كانت كأنها خبزاً سماوياً كالذى يقتات منه سكان عالم الأنوار.

وتقدم هذه الأقراص لأفراد الطائفة فى أيام الأعياد حيث يتعمدون قبل تناولها وهى لا تعطى الا لمن كان حسن السمعة مشهوراً بالصلاح. أما فائدتها فيقولون انها تجدد تطهير النفس بحيث ان الشخص اذا أثم بعد تناولها، كان عقابه عشرة أضعاف مالو أثم دونها.

كهنة الصابئة ودرجاتهم ووظائفهم

لكل أمة من الأمم درجة خاصة تمتاز بكونها ذات مكانة مقدسة وبكونها تشرف على شؤون الأمة الدينية. وتتبع هذه الطبقة فى كثير من تصرفاتها وأوضاعها قوانين الدين ومراسيمه الخاصة وقد تسمح لها السلطات المدنية فى كثير من الأمم بالاستقلال ببعض شؤونها وباتباع أنظمتها الخاصة. وبنسبة رقى الأمم وانحطاطها، تكون أنظمتها الخاصة شديدة وخفيفة إلى هذه الطبقة.

ففى الأمم المتمدنة، تقتصر وظائف هذه الطبقة على اقامة مراسم الدين ضمن المعابد والهياكل. وتنحصر واجبات الجمهور نحوهم بالاحترام والتقديس. أما فى الأمم المنحطة، فتكاد تكون كل حركة من حركات الناس متوقفة على الاذن والرخصة من قبل

رجال الدين . ويكاد يكون سلطان الدين فيها سلطاناً لا يزاحمه غيره.

والصابئة من الأمم التى تحكّمت فيها السلطات الدينية وجعلت كلمتها هى النافذة فى جميع شؤون الطائفة . فالزواج والجناز والولادة والتسمية والذبح والصلاة كل ذلك لا يتم إلا على أيدى رجال الدين عندهم .

وينقسم هؤلاء الرجال الدينيون بحسب رتبهم إلى خمسة أقسام يستطيع المنتمى اليها أن يتدرج فيها حسب الأصول إذا توفّرت فيه الشروط المطلوبة وهذه الأقسام هى :—

١ً — (الحلالى) : يشترط لمن أراد الانخراط فى سلك هذه الوظيفة أن يكون سالم الجسم من كل العيوب الخلقية صحيح الحواس قد تمتعت عائلته بهذه الصفات منذ ثلاثة أظهر وان لا تكون أمه ثيب حينما تزوجها أبوه إلى سبعة أظهر .

أما العلوم التى يتناولها ، فتقتصر على كتب الدين الابتدائية بعد اجراء مراسم التعميد الخاص بهذه الدرجة .

وتنحصر وظيفة الحلالى فى اقامة مراسم الذبح للعامة، وكيفية ذلك أن يحضر مقداراً من القصب والبردى والحلفاء وينظفها فى الماء ثم يطهر الذبيحة فى الماء الجارى ويطرحها على القصب ويتلو عليها أذكاراً خاصة ثم يبدأ بذبحها ولا يصح لأحد أن يمسها لأنها تنجس باللمس .

أما ذبح الدجاج، فيختلف بكونه لا يصح فيه أن توضع الذبيحة حال ذبحها و بعده على الأرض، انما تذبح بيد الحلالي و توضع فى القدر المعدّ لطبخها مباشرة لأن وضعها على الأرض ينجسها .

وكما أنه لا يجوز للصابئة ذبح الذبيحة المصابة باحدى العاهات، كذلك لا يجوز لهم ذبح الدجاجة العوراء أو المصابة باحدى العلل. وعلى كل يشترط حضور شاهد يلبس لباساً خاصاً فى جميع أحوال الذبح .

ولا يجوز الذبح ليلاً إلا فى أحد أعيادهم المسمى بالعيد الخماسى (عيد پنجه) حيث يتساوى فيه الليل و النهار و يستمر خمسة أيام واسمه من لفظه الفارسى (اى خمسة)

٢ً — الترميدة (أى تلميذ) : يتدرج الحلالي إلى درجة ترميدة بعد أن يجرى المراسم الخاصة لهذا التدرّج وذلك بأن يتعمد بالارتماس فى الماء الجارى المتصل ببئر نابعة ،وأن يحضر مجلسه بعد خروجه ، طبقة من الكهنة من درجة مماثلة للدرجة التى يريد الانخراط فى سلكها ومن درجة كَنزوره . فيمكث معهم سبعة أيام كاملات لا تغمض له عين فيها خشية أن يتطرق إليه الشيطان فيحتلم ويفسد عليه عمله لأن الاحتلام عندهم ،دليل على عدم كفاءة الرجل الحلالى إلى هذه الدرجة . ولهذا السبب نراه يضطر إلى الاكثار من تلاوة الكتب والأدعية وإقامة الولائم والأفراح

ودق الطبول والأبواق حتى تنتهى المدة المذكورة . فاذا أتمها كاملة الشروط، أصبح (ترميده) وجاز له أن يعقد على المرأة الثيّب فتنحصر وظيفته فى العقد على الثيبات ويحرم عندئذ من الارتقاء إلى درجة (كَنزوره) ولا يمارس أعمال دينية غير العقد المذكور ويسمى (أبو يسقى) أو (كَنزوره من الدرجة الثانية) .

٣ــ الكَنزوره : لابد للترميده الذى يريد أن يرتقى إلى درجة (كَنزورة) أن يكون متزوجاً وغير عقيم . فاذا لم تكن له زوجة وذرية ، فلا يصح له أن يكون (كَنزوره) وإذا ارتقى إلى الدرجة المطلوبة، وجب عليه الانقطاع عن مواقعة زوجته حتى يعقد مهراً لعالم من درجة (ترميده) وعندئذ تباح له المواقعة المذكورة . ويشترط فيه أيضاً أن لايكون قد عقد على ثيب ما لأن العقد على الثيب من اختصاص الترميدة كما أسلفنا .

أما المراسيم التى يجب عليه أن يجريها لذلك ، فهى عبارة عن إقامة عريش من قصب على بئر متصلة بماء جار يتعمد فيها بمشهد رجلين من الدرجة التى يسعى إليها واثنين آخرين من درجته الأصلية (أى ترميده) فاذا أتمَّ هذه المراسم ، أصبح (كَنزوره)

وفى طائفة الصابئة اليوم لايوجد أكثر من عدد محدود لا يتجاوز السبعة من هذه الدرجة فقط أما الدرجتان الرابعة والخامسة فلم يبلغ اليها أحد فى هذا العصر لعدم توفر الشروط المطلوبة لهما .

ومعنى كَنزوره ، مفسر كتاب (الكَنزه) — أحد كتب الصابئة المقدسة — أو صاحب الحق فى تفسيرهذا الكتاب .

٤ً — الارشمه : ومعناه رئيس الأمة وصاحب الكلمة النافذة ولا يوجد اليوم فى الصابئة من بلغ هذه الدرجة بعد

ويشترط للكَنزوره الذى يريد الارتقاء إلى هذا المقام، أن يكون شخصاً ذا أهلية وكفاءة تجعلانه جديراً بهذا المنصب الخطير .

أما المراسم التى يجريها ، فلا تختلف عن مراسم الترميده الذى يتدرج إلى درجة الكنزوره إلا فى عدد الأشخاص الذين يحضرون اقامة المراسم من طبقته ومن الطبقة التى يرتقى إليها . فانه يشترط أن يكون عددهم سبعة وأن يكون السبعة الذين من طبقته قد استفادوا من علمه (وتتلمذوا) عليه.

٥ً — الربانى : بعين الشروط التى يجتاز بها الكنزوره إلى درجة (أرشمه)، يرتقى (الأرشمه) إلى درجة (ربانى) إلا أنه يختلف بعدد الشهود الذين يحضرون تعميده . فانه يشترط أن يحضر إقامة المراسم سبعة أشخاص من الطبقات الثلاث (الترميده والكنزوره والأرشمه) وتتلى عند إقامة هذه المراسم أذكاراً وأدعية خاصة من قبل الشهود المذكورين فى أيام معينة العدد. فاذا ارتقى العالم إلى هذه الدرجة ، يرتفع إلى عالم الأنوار (آلمي دنهورو) .

ولم ينل هذه المرتبة من السابقين حتى الآن إلا يحيي (ع)

المسمى فى لغتهم المندائيــة (يهيه بهانه) كما انه لا يجوز وجود شخصين من هذه الدرجة فى عصر واحد .

طعام الكهنة وبعض وظائفهم

لا يجوز للكاهن الصابئى أن يأكل من دار غير داره ولا من يد امرأة غير معمَّدة انما يختص بزوجته التى عمدها هو واعتمد على معرفتها بمراسم الطعام والغسيل واحضار ماء الشرب، فتتولى هى احضار طعامه وشرابه وسائر ما يحتاج اليه بمراسم خاصة . فاذا لم تكن عنده زوجة، فيتولى هو بنفسه إعداد الطعام والشراب لنفسه .

وقد حضر الشيخ دخيل ذات يوم عندنا فى الدار «وهو من رؤساء هذه الطائفة » فامتنع عن تناول الطعام والشراب رغم حاجته الى الماء . ومن غريب ما ذكره لنا انه فى حالة تناوله طعامه فى بيته، يضع على صدره منديلاً خاصاً فاذا سقط طعام على غير ذلك المنديل ، حدثت له مشكلة مهمة يتعذر عليه الخروج منها .

وللعلماء ذبح خاص يختلف عن ذبح العامة ويتولونه بأنفسهم بأوضاع مخصوصة وآداب متوارثة ، وهم يتولون — حسب درجاتهم — تعميد أفراد طائفتهم وتعليمهم الأمور الدينية والعقد على الأبكار دون الثيبات .

التعميد واقسامه عند الصابئة

التعميد عبارة عن اجراء مراسم خاصة يكتسب بها الشيء المعمّد صفة دينية مقدسة. فاذا تعمد الطعام أو الطفل، اكتسب صفة خاصة تؤهله للقيام بوظيفة دينية.

فالطعام مثلاً يحل بعد التعميد، والطفل يطهر به، والمذنب يكتسب بواسطته الغفران، فهذه الصفات الجديدة انما اكتسبها الأشخاص واتصفت بها الأشياء بواسطة التعميد.

وتكاد تنحصر طرق التعميد عند الصابئة (وهم يسمونه مَصْوَتَا) فى أربعة أنواع وهى : —

١ً — عماد الزواج : وهو عبارة عن المراسم التى تقام للعروسين عند عقد الزواج وقد شرحنا ذلك فيما تقدم.

٢ً — عماد الولادة : ونقصد به مايصبح به الطفل طاهراً.

فاذا رزق أحدهم مولوداً، وجب عليه أن يخبر الكاهن به ليعين له الزمان والمكان والنجم والطالع والبرج والمنزلة التى ولد فيها، ويثبت له مع مقارنة هذه الأشياء وبعد اختبار الطالع، اسماً يدل عليه برجه ومنزلته السماوية. ويكون هذا الاسم محفوظاً للمولود — وبلغتهم المندائية الخاصة — ثم يضعون له بجانب هذا الاسم،

اسماً آخر تقتضيه البيئة التي يعيشون فيها، ففي البلاد العربية يسمونه باسم عربي وبغيرها من البلدان يسمونه بأسماء سكان تلك البلدان .

فاذا مرّ على المولود أربعون يوماً (١) وجب أن يعمد بتعميد الولادة. وكيفية ذلك أن يذهب به إلى كاهن من درجة كَنزوره مع شخصين من درجة ترميده (أى التاميذ) وبعد أن يرتدى الكهنة حلتهم الكهنوتية المسماة (رسته) ويأخذ رئيسهم (الكنزوره) عصا خاصة (تدعى مركَنه) ، ينطلقون إلى الماء الجارى ، فيجلس الرئيس بين تلاميذه على حافة النهر ويتلو على رأس الطفل أذكاراً خاصة وينزل فى النهر ،فيشرع يغرف الماء بيده ويصبه على المولود ثلاث مرات وهو يتلو فى كل حركاته أدعية مقررة، ثم يضع فى أصبع المتعمد خاتماً من عود الآس ويخرج بعد ذلك من النهر بعد أن ينتزع الخاتم من أصبع المولود ويضعه على جبهته .

ثم يتناول بيده اليمنى مقداراً معيناً من البخور يلقيه فى نار معدّة لذلك ويتلو أثناء اشتعال البخور أدعية خاصة، ثم يتناول عشر حبات من حب السمسم المقلي الموضوع فى كيس خاص فيصب عليها قليل من الماء يغترفه بيده من النهر بعد خروجه ، وبعد أن يلته بأنامل يده اليمنى ، يضعه على جبين الطفل ثلاث مرات يقول

---

(١) لا يجوز تعميد الطفل قبل خروجه من الأربعين ولا بعد مرور شهرين على ولادته ولا فى أيام الأعياد مطلقاً ويستحب تعميده فى أيام الآحاد

فى أثنائها مامعناه (لقد وُسمت بسمة الحياة واسم الحياة واسم معرفة الحياة مذكوران عليك) .

ثم يصلى عليه صلاة طويلة يصبح بعدها الطفل معمّداً، ثم يرفع الكاهن الخاتم عن جبهة الطفل ويضعه على شفتيه ثم يرميه فى الماء، وبهذا ينتهى التعميد وينصرف المحتفلون بتعميده .

٣ً — عماد الجنابة : ينجس الصابئى بالجنابة ، وتحتاج طهارته إلى تعميد فى ماء جار سواء أكان الوقت قيظاً أم شتاءً وبمراسم خاصة يعقبها وضوء كما مر بنا فى بحث الطهارة والصلاة .

والصابئى ؛ يجنب إذ لمس الميت أو المولود أو الحائض أو النفساء أو دم الحيوان المذبوح على غير شريعتهم أو إذا نهشته الحية أو لسعته العقرب أو غيرهما من الهوام .

٤ً — عماد الجماعة : فرض على الصابئى أن يتعمد فى كل عيد (بنجه) من كل سنة ويقام هذا العيد فى خمسة أيام بين شهرى كانون الثانى وشباط من كل عام، وينسب كل يوم من أيام هذا العيد إلى شخص من أشخاصهم التاريخيين ،فيلبس الصابئى فى هذا العيد ألبسة بيضاء ويمشى حافي القدمين ويرتمس كل منهم فى الشط قبل تناول الطعام ويدهن شعره بدهن السمسم .

والتعميد فى هذا العيد يشمل الرجال والنساء على حدّ سواء

والقصد منـه التكفير عن الذنوب بزيارة الـكنائس المقدسة والارتماس فى الماء .

اعياد الصابئة

تقسم السنةعند الصابئة إلى ٣٦٠ يوماً وإلى١٢ شهراً فى كل شهر ثلاثون يوماً . وأول السنة عندهم نيسان وتليه الشهور على الترتيب بأسماء تختلف قليلا عن أسماء الشهور الرومية .

أمابدءالتاريخ عندهم،فينقسم إلى ثلاثةأقسام :فبدءالخليقةوهبوط آدم، أول تاريخ تضبط به السنين عندهم .ويليه عام الطوفان الذى يعتبر الآن تاريخاً لتحديد السنين . ثم ولادة يحيى (ع) التى لاتفرق فى المدة عنولادة المسيح (ع)إلا بستة أشهر، لذلك فهم يتفقون فى بداية تاريخهم الأخير مع التاريخ الميلادى .

أما التاريخ الهجرى،فهم يعتقدون بصحته أيضاً ويستعملونه فى كثير من معاملاتهم الدينية والرسمية لأن ظهور النبى محمد (ص) كان منصوصاً عليه فى كتبهم المقدسة وهو بداية الدور الأخير الذى يحتاج إلى اصلاح .

وهم يقدسون يوم الأحد كالنصارى ويعطلون فيه اشغالهم لانهم يعتقدون بنزول (موشيه) أحد الـ ٣٦٠ قديساً السماويين من عالم الأنوار (آلمي دنهورو) إلى الأرض لتعميد أهل (مشوني كشطه)

ولذا فهم يسمون هذا اليوم باسم القديس السماوى . أما بقية أعيادهم الرسمية فهى : ـ

١ً — عيد الكبير ويسمونه (دهوْ ربّه) أى عيد ملك الأنوار ومدته ٣٦ ساعة تبتدئ باليوم التاسع من شهر آغستوس ويشترط فيه أن يلازم الصابئي بيته وأن يذخر فيه ماءً يكفيه لأيام هذا العيد لأن ملك الماء مع سائر الملائكة الأرضيين ، يعرجون إلى عالم الأنوار للاحتفال بهذا العيد فيستغرق صعودهم ١٢ ساعة وبقاؤهم فى عالم الأنوار ١٢ ساعة وهبوطهم ١٢ ساعة وهم يعتبرون هذا العيد، اليوم الذي غفرت فيه خطايا آدم وتكلم فيه بألفاظه القوية

ويراجع العلماء فى مثل هذا اليوم ، كتب الطالع المقدسة ليستكشفوا حوادث السنة وما يقع فيها . ولهم فيه عادة تكاد تكون موجودة عند جميع الأمم التى تحتفل بعيد (النوروز) وهى وضع الفواكه الطريّة واليابسة فى طبق طيلة ليلة العيد حتى إذا ما أصبحوا ، تناولوه . ويسهر كل صابئي فى هذا العيد خشية أن يحتلم .

٢ً — عيد البنجه ويسمونه (دهوه پرونايا) ويستغرق خمسة أيام كما تدل عليه اللفظة الفارسية. وهى الخمسة الأيام التى تكبس بها السنة لأن أشهرهم ثلاثون يوماً. ويقع بين الشهرين الثامن والتاسع من سنتهم [1]

(١) تبتدئ سنتهم بشهر نيسان كما تقدم

وكل يوم من أيام هذا العيد، مخصوص بشخص من الـ ٣٦٠ قدّيساً ويتعمد العامة فى هذه الأيام ويقدمون فيه الضحايا وهو بعد عيد الصغير بـ ١٣٢ يوما وفيه تقدس الكنائس المحدثة التى تنشأ عادة من حزم القصب على شواطئ الأنهر ويكون لها نافذتان مع باب تقابل جهة الجنوب ليستقبل الداخل فيها نجم القطب القائم تحته العرش الرباني .

٣ — عيد الصغير وهو العيد الذى جمّد فيه جبرائيل الأرض بعد أن كانت سائلة باسم الآله ومدته ثلاثة أيام تقع بعد العيد الكبير بـ ١٠٨ أيام وتقدم فيه القرابين للموتى وتعمل فيه أعمال البر لهم ويبتدئ هذا العيد فى اليوم الثامن عشر من شهر ايار الصابئى وينتهى فى ٢١ منه .

كتب الصابئة المقدسة

الكتب المقدسة، هى المصادر الوحيدة لأديان العالم. ولا توجد اليوم أمة لا تستمد ديانتها من كتب تعتقد بصدورها من مصدر سماوى، وحتى الأمم المتوحشة فانها تسند أساطيرها وطقوسها إلى مصدر روحي وراء هذا العالم المنظور . وتجتهد هذه الأمم فى أن تجعل هذه الكتب صادرة من واسطة التبليغ مباشرة بل قد يترقى البعض منها فيجعل هذه الكتب منزلة بمجموعها من السماء كما تدعيه الصابئة فى صحف آدم المفقودة، أو كما تدعيه اليهود

فى توراتهم قبل النبى. وقد يكون هذا الدافع طبيعى لتقوية الاعتقاد وبناء الايمان على أساس متين .

وقد سعت المجامع التى عقدتها الأمة النصرانية فى القرون الوسطى إلى تصحيح الأناجيل وإلى محو المشتبه فيه كما حصل مثل هذا التصحيح للقرآن فى صدر الاسلام حينما أمر عثمان (رض) بمحو مالم يكتب بلغة قريش . وهكذا نجد الأمم على اختلافها تعتقد بأن كتبها هى المصدر المفيد لليقين بتكاليفها والواسطة التى تدين بها لمعبودها .

ويرى الصابئة زيادةً على ماتراه الأمم الأخرى ،ان كتبهم المقدسة قد توارثوها بصورها الموجودة لديهم عن آدم أبى البشر فابراهيم الخليل فموسى فيوحنا المعمدان ، وهم يعترفون بأن معظم هذه الكتب قد تلف بالرغم من حرصهم على الاحتفاظ بها إلا انهم لايشكون فى أن صورة الموجود منها طبق الصورة الأصلية المنزلة وان التطورات التاريخية لم تؤثر عليها من هذه الناحية لافى اللغة ولافى الترتيب وقد يكون هذا الشئ مستبعد .

وأهم الكتب التى بقيت فى أيديهم حتى الآن هى :ـ

١ — كتاب (الكنزا ربّا) أو (السدرا دادم) أى الكتاب العظيم أو الكتاب المنزل على آدم (عليه السلام) وهو مطبوع على حجر فى لايبسك بالمانيا وتختلف الصابئة فى تاريخه فمنهم من

يقول بأن تاريخه يرتقي إلى ماقبل النصرانية ومنهم من ذهب إلى انه من عهد يوحنا المعمدان ولا يكاد تاريخه يعرف بالضبط. وتنحصر مباحثه في ذكر بدء الخليقة والتطورات التي حدثت للبشر.

٢ — كتاب (أدرافشه ديهى) أي تعاليم يحيى وهو أحدث تاريخاً من الأول ويتضمن حياة النبي يحيى (ع) وارشاداته وتعاليمه الدينية. فيكاد والحالة هذه، يشبه الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى وفيه أيضاً بحث في النجوم والكواكب يستعينون به على استخراج الطالع والفال.

٣ — (القلستا) أي كتاب الفرح وهو خاص بالبحث عن مراسيم الزواج والاحتفالات التي تقام أثناء العقد وعن كيفية تحليل النكاح الشرعي واجراء الخطبة.

٤ — (سدرا دنشماثا) أي كتاب النفوس وموضوعه البحث في مراسم الجناز وتلقين الأموات وكيفية دفنهم وأسباب تحريم البكاء والحداد عليهم وما إلى ذلك مما يتعلق بالموت والمعاد.

٥ — (الديونان) وهو سفر ضخم تذكر فيه قصص بعض الروحانيين وسيرهم مع صورهم وهو من أنفس كتب الصابئة التي تعين المتتبع لديانتهم على الوقوف على أهم مايتطلبه الباحث.

٦ — (أسفر ملواشى) أو(أسفر ملواشا) ومعناه سفر البروج الذي يتمكنون بواسطته من معرفة البرج الذي ولد فيه الشخص

فيستنبطون منه اسمه المقدس الذى يبقى محفوظاً لديهم ويعينون به طالع المولود .

٧ — (الاينانى) أى الأناشيد أو الأذكار الدينية التى تتلى فى الصلاة وهو كتاب خطى قديم، شاهدت نسخة قديمة منه على رق غزال .

ولهم عدا ماتقدم ، عدة كتب تتعلق بطقوسهم وآدابهم ومعايداتهم وسائر سننهم الاجتماعية وهم حريصون جداً على هذه الكتب ولا يكاد الانسان يستطيع الوقوف على أحدها إلا بشق الأنفس لأنهم يرون ان اطلاع الغير على كتبهم، أمر محرّم يؤثم عليه الفاعل .

عدد الصابئة ومنازلهم

ان شرط الانتماء إلى دين الصابئة ومايتطلبه من مراسم تقبّله، هو السبب الذى جعلهم محصورين فى العدد آخذين فى التناقص وقد لايمرّ قرن عليهم إلا وهم منقرضون من سفر الوجود أضف إلى ذلك ان حالتهم الاجتماعية وعادات الزواج عندهم تمنعهم من التوسع والانتشار ، فلا يستطيع غير الصابئى أن يكون صابئياً ، ولا يحل للصابئي أن يتزوج بغير صابئية ولا يزيد عدد الموجود منهم الآن على الـ ٥٣٠٠ نسمة إلا أن الشيخ دخيل ذكر لنا ان عددهم يربو على الـ ١٠,٠٠٠ نسمة وأمر ذلك موكول إلى الاحصاء الرسمى.

وقد كانوا فى أيام الخلفاء العباسيين منتشرين فى كثير من بلدان الشرق التى تقع على الأنهر. وكان لهم مركز دعاية فى حرّان[١] أما اليوم فقد أصبحوا محصورين فى أماكن معينة من العراق وفى بلاد عربستان . ومعظم منازلهم بل كلها واقع على شواطئ الأنهر لأن طقوسهم وعاداتهم الدينية لا تتم إلا بالارتماس فى الماء الجارى كما أسلفنا. وقد حدثت فى الأيام الأخيرة عدة حوادث أفنت الكثير منهم وقضت على عدد من كتبهم المقدسة ولاسيما فى أيام الاقطاعات فى العراق وعربستان . وقد قصّ علينا الشيخ دخيل المومى اليه عدة حوادث عن اضطهاد الصابئة لم نثبتها هنا لفقدان تاريخها بالضبط .

وأهم البلدان التى يقطنونها فى الوقت الحاضر هى: العمارة والعزيِّر (بالتصغير) وقلعة صالح والشرش ونهر صالح وكَرمة بنى سعيد والجبايش والحمار « بتشديد الراء » وسوق الشيوخ والناصرية والبصرة والمحمَّرة وششتر ودسپول وغيرها وقد توطن بعضهم بغداد بعد الاحتلال البريطانى ونزح فريق آخر إلى طهران طلباً للرزق

---

(١) عن تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٧٧ طبعة أوربا « وكانت حران مدينة عظيمة وأما اليوم فخراب.قال فى المشترك وحران مدينة مشهورة تعد من ديار مضر « بالضاد المعجمة » قال ابن حوقل وهى مدينة الصابئين وبها مدنهم السبعة عشر وبها تل عليه مصلى للصابئين يعظمونه وينسب إلى ابراهيم وهى قليلة الماء والشجر . . . الخ »

وقد ذكر لنا الشيخ دخيل ان بعض أبناء الصابئة أخذ يتساهل في أمر المراسم الدينية الأمر الذى قد يبيح لهم السكنى على غير مجارى المياه . أما صناعتهم فهى على الأغلب صياغة الميناء .

صياغة الميناء

والميناء (بالكسر والمدّ) لفظ فارسى معناه صناعة جوهر الزجاج وهو اسم لأكاسيد معدنية تصهر بمادة زجاجية وتزين بها الأوانى الثمينة فتكسبها رونقاً وجمالا .

وصناعة الميناء قديمة عرفها الطورانيون الأقدمون وتناقلها عنهم المصريون والفينيقيون ثم انتقلت إلى الهند وفارس ثم إلى البيزنطيين وقد انتشرت فى الشرق والغرب حتى بلغت أوج كمالها فى نهاية القرن السادس عشر للميلاد .

وهى إما شفافة كالزجاج يخترقها النور وتحكى عما ورائها وإما كثيفة تزين بها سطوح الأجسام فتشبه الخزف الصينى. وكلا النوعين يمتاز بكونه ذا ألوان متعددة وهى تستعمل لوجوه الساعات التى تثبت عليها الأرقام .

أما طريقة عملها فتكون بسحق الأجزاء المطلوب مزجها بكميات معينة كل على حدة سحقاً جيداً ثم توضع على النار فتصهر إلى أن تسيل فى بودقة مغطاة أربع مرات ترفع فى كل مرة لتسكب

بالتدريج فى ماء حتى تتصلب الأجزاء فيسهل سحقها وتجرى من وراء ذلك عملية التخطيط على الأجسام بالصور المطلوبة .

وقد تخصص القسم الأغلب من الصابئة بهذه الصناعة حتى أبدعوا فيها وأتقنوا فن نقل الصور بضبط ودقة . وتكاد هذه الصناعة تنحصر فيهم لأنهم حريصون على حفظ أسرارها .

ويمتهن البعض منهم صناعة السفن الصغيرة المسماة (الطراريد) وهى السفن التى يكثر استعمالها فى جنوبى العراق كما ان بعضهم يمتهن الحدادة و بيع الأخشاب وهم قليلون جداً .

الخاتمة

تبين مما تقدّم، أن الباحث لا يستطيع أن يصل بصورة قطعية إلى مبدأ الدين الصابئى وإلى التطورات التى طرأت عليه فى القرون المتوسطة، وهل هؤلاء الذين يدعون أنهم صابئة هم الصابئة الأقدمون الذين ذكرهم القرآن و نوّه عنهم مؤرخوا القرون الوسطى ؟ أو انهم طائفة أخرى انتحلت هذا الاسم كما يدعيه (هنرى يونيون) فى كتابه (الرقم المندائية) ؟؟ إلا اننا نستطيع أن نجزم بأن فى كثير من تعاليمهم وطقوسهم الدينية ، الشئ الكثير من تعاليم الدين الصابئى القديم وان كنا نجهل طرق توصلهم إلى تلك الطقوس .

أما الكتب الموجودة بأيديهم، فهى مع قدمها ، لا تكاد تفيد

اليقين بأنها كتب الصابئة الأقدمين أو انها باقية من قبل الطوفان أو بعده أو من زمن يوحنا المعمدان بأيدى هذه الطائفة .

ولا شك فى ان ماسطرناه نقلا عن الكتب التاريخية واستناداً إلى ما كتبه البعض وقصه علينا رئيس الطائفة الشيخ دخيل، الكفاية لمن أراد أن يدرس حياة وأحوال هذه الطائفة الغريبة فى أشكالها وسحنة وجوه أبنائها والتى تشرف اليوم على الانقراض وقد تصبح فى سجلات التاريخ بعد حين . ؟

اهم الـكتب التى اعتمدنا عليها فى وضع هذه الرسالة

١ — دائرة المعارف الانجليزية
٢ — الفهرست لابن النديم
٣ — دائرة المعارف الأفرنسية
٤ — الرقم المندائية (كتاب افرنسى)
٥ — مجلة المقتطف
٦ — كتاب ضخم فى اللغة الألمانية
٧ — الملل والنحل للشهرستانى
٨ — تقويم البلدان لأبى الفداء
٩ — مجلة البيان لليازجى
١٠ — اغاثة اللهفان فى مصائد الشيطان
١١ — مروج الذهب للمسعودى
١٢ — مقدمة ابن خلدون
١٣ — القاموس المحيط للفيروز ابادى
١٤ — الملل والنحل لابن حزم
١٥ — مجلة المشرق لليسوعيين
١٦ — مندائى
١٧ — كتاب أبكار الأفكار للآمدى (خط) . . . الخ

مضامين الكتاب

الصفحة الموضوع

﴿تمت الفهرست﴾

آثار المؤلف المطبوعة

١ — تاريخ البلدان العراقية
٢ — رحلة فى العراق أو خاطرات الحسنى «طبع ثلاث مرات»
٣ — الأغانى الشعبية «جزآن طبع الأول فقط»
٤ — البابليون فى التاريخ
٥ — عبدة الشيطان فى العراق «طبع مرتين»
٦ — الصابئة قديماً وحديثاً «وهو هذا»
٧ — الخوارج فى الاسلام
٨ — المعلومات المدنية لطلاب المدارس العراقية
٩ — تحت ظل المشانق «رواية فى ثلاثة أجزاء»
١٠ — تاريخ الوزارات العراقية «تحت الطبع»